فَتحُ المُبِين

بِصَحِيحِ قِصَصِ الأنبِيَاءِ والمُرسَلِين



تأليف فَضِيلة الشَّيخ

أَبِي مُحَمَّد عَبدِ الحَمِيدِ بنِ يَحيَى الحَجُورِيِّ الزُّعكُرِي

كَانَ اللهُ لَهُ فِي الدُّنيا والآخِرة

الطبعة الثانية

فتح المبين

بصحيح

قصص الأنبياء والمرسلين

فتح المبين

بصحيح

قصص الأنبياء والمرسلين

تأليف فضيلة الشَّيخ

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

كانَ اللهُ لهُ في الدُّنيا والآخِرة

Abu Al-Hasan
Technical Formatting & Printing
للتنسيق الفني والطباعة
Phone: +967 771532950

بسم الله الرحمن الرحيم

فتح المبين بصحيح قصص الأنبياء والمرسلين

تأليف فضيلة الشَّيخ

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى الحجوري الزعكري

الطبعة الثانية

١٤٤٨هـ - ٢٠٢٦م

روابط قنوات فضيلة الشيخ على منصات التواصل

الموقع الرسمي لفضيلة الشيخ حفظه الله تعالى

https://alzoukory.com.

https://t.me/A_lzoukory

A_Alzoukorys

https://www.youtube.com/channel

https://www.facebook.com/649918028352367

https://chat.whatsapp.com/FglUKZ0nwzR5EYaguQttSz



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [الأحزاب:٧٠]

أما بعد:

فإن دراسة قصص الأنبياء والمرسلين من الأمور المهمة؛ حيث تضمن القرآن العظيم وصحيح السنة المطهرة كثيرًا من القصص في هذا الباب.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ منهم في القرآن خمسةً وعشرين رسولًا ونبيًّا، منهم في سورة الأنعام ثمانية عشر، حيث قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ

نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا
هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ
مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

[الأنعام:٨٣-٨٦].

وقد نظمها بعضهم بقوله:

فِي تِلْكَ حُجَّتُنَا مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ

إِدْرِيسُ هُودٌ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ... ذُو الْكِفْلِ آدَمُ بِالْمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

ومن الفوائد العظيمة، والحِكَم الكريمة، في دراسة قصص الأنبياء:

أولًا: الاقتداء بهم، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة:٦].

ثانيًا: التثبيت على الحق، والموعظة، والذكرى، كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود:١٢٠].

ثالثًا: بيان عظيم ما يدعون إليه من التوحيد، ومكارم الأخلاق، ومعالي القيم، وحسن العبادة، والمعاملة، وغيرها.

فتجد أن كثيرًا من الناس يعتزون بكبرائهم؛ فالفلاسفة يعتزون بأفلاطون، وأبقراط، وأرسطو، والأطباء يعتزون بابن سينا، وهكذا تجد كل واحد يعتز بسلفه. وأنت، أيها المسلم، تعتز بالأنبياء والمرسلين، والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ،

والتابعين، ومن سار على سيرهم إلى يوم الدين، فتستفيد من طريقهم في الصدق، والأمانة، والأخلاق، والقيم، والمبادئ.

رابعًا: أن الرسل كانوا على غاية التوحيد والانقياد لله عَزَّوَجَلَّ، فينبغي أن تتأسى بهم، وأن تسلك سبيلهم، وتهتدي بهديهم وطريقهم، لا سيما في باب التوحيد، وفي باب الشرائع.

قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

خامسًا: التأسي بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في براءته من الشرك والتنديد به، وفي دعوته إلى التوحيد، وفي التزامه أمر رب العباد؛ حتى إنه أمره بذبح ولده، فما كان منه إلا أن استجاب، وما كان من الولد إلا أن أناب، فأكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بالإثابة والسلامة.

سادسًا: الثبات؛ فكم أوذي الأنبياء، وكم أوذي المرسلون، وكم تربص بهم أعداؤهم، ومع ذلك ثبتوا، ونُصروا، وأُعزوا، وأُكرموا.

سابعًا: معرفة ما اتفقوا عليه من العقائد؛ فهم متفقون في هذا الباب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ثامنًا: بيان أن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار؛ فكم حلَّ بهم، صلوات ربي وسلامه عليهم، من الأذى.

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:١١٠].

تاسعًا: معرفة أحسن القصص، السالم من شوائب أهل الكتاب، التي زادوا فيها وطعنوا في الأنبياء والمرسلين.

فالإسرائيليات يكذبون على أنبياء الله ورسله؛ بينما القرآن سالم من ذلك.

كانوا يعتقدون أن سليمان عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ ساحر، حتى جاء القرآن بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وكانوا يعتقدون أن عيسى عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ قد صُلب وقُتل، حتى جاء القرآن وأخبر أن الله رفعه إليه، وأنهم ما صلبوه يقينًا، إلى غير ذلك من العقائد.

قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف:٣].

عاشرًا: التعريف بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

فكل إنسان يحب أن يعرف سلفه، ويحب أن يعرف أصحابه، ويتحدث عنهم، فنحن نتحدث عن الأنبياء والمرسلين، والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُم، والتابعين، ومن سار على سيرهم من الأئمة إلى يوم الدين.

الحادي عشر: معرفة أن طريق الدعوة شاق، وكثرة المخالفين له، ومع ذلك فالعاقبة للتقوى.

فنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما آمن معه إلا قليل، فكان النصر له. وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ ما آمن معه إلا قليل، فكان النصر حليفه.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لحقه فرعون بعدده وعُدَّته، وكان النصر حليفه.

وهكذا نبينا محمد ﷺ، هوجم إلى المدينة والمسلمون في قلة، وكان النصر حليفه، فالعاقبة للتقوى.

الثاني عشر: تميُّز أفضل الرسل عن غيرهم بصبرهم، وثباتهم، ودعوتهم.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف:٣٥].

وهم المذكورون في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب:٧].

الثالث عشر: العلم بما حلَّ بالمخالفين لطريق الرسل في الدنيا والآخرة من العقوبات والنكبات.

الرابع عشر: أنهم عظماء البشرية، ودراسة أحوالهم وأقوالهم من الأهمية بمكان، وفيها إظهار فضلهم وعظيم منزلتهم.

الخامس عشر: بيان عظيم تعلقهم، وتوكلهم، واعتمادهم على الله. عَزَّوَجَلَّ

السادس عشر: بيان أنه يجب الإيمان بهم جميعًا، وعدم التفريق بينهم، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٨٥].

السابع عشر: معرفة الطرق العلمية، والحجج القوية، في مناظرة المخالفين للحق والهدى.

الثامن عشر: بيان عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك من حفظه لأنبيائه ورسله وأتباعهم في أشد اللحظات، وأحلك الحالات، مع شدة المكر والكيد من المخالفين، فالله ينصرهم، ويعينهم، ويسلمهم، وهذا دليل على قدرته، وقوته التي لا تُغلب، وعزته التي لا تُقهر.

التاسع عشر: الترويح على القارئ؛ حيث يقرأ قصة، ويخرج إلى غيرها، ففيها من آثار التشويق والترغيب ما الله به عليم، حتى لا يصاب بالملل.

العشرون: أن ما أقره شرعنا كان شرعًا لنا، فنتعبد به، ونتقرب به إلى الله . عَزَّوَجَلَّ

الحادي والعشرون: بيان عظيم منزلة الدعاء؛ فقد كانوا كثيري التضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ في نصرهم، وتثبيتهم، وعونهم، وتوكلهم، إلى غير ذلك، ويستجيب الله لهم.

الثاني والعشرون: معرفة كيفية الدعوة إلى الإسلام الصحيح، والتدرج في الدعوة ببيان الأهم فالأهم، والدعوة سرًّا وجهرًا.

إلى غير ذلك من الحكم التي لو أراد المصنف استيعابها، لخرج عن الاختصار.

فهؤلاء عباد الله الذين اصطفاهم، وفضلهم على غيرهم، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران:٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [القصص:٦٨].

فالنبوة والرسالة محض اجتباء واختصاص من الله لمن شاء من عباده؛ لعلمه بما هم عليه من الفضل والخير.

وفي حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عند أحمد (٣٦٠٠):

«إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا، فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ».

فإن كان الفلاسفة يفتخرون بأهل الإلحاد، كأفلاطون، وأرسطو، وأبقراط، ومن إليهم، ففخرنا وعزنا بمعرفة رسل الله عَزَّوَجَلَّ، والتأسي بهم.

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ ... إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ الْمَجَامِعُ

وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، وفي رواية: ثلاثمائة وخمسة عشر.

فعن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، أنبيًّا كان آدم؟ قال: «نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ». قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عَشْرُ قُرُونٍ». قال: كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عَشْرُ قُرُونٍ». قال: يا رسول الله، كم كانت الرسل؟ قال: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا». أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦٢)، وصححه شيخنا الوادعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وجاء في حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وإسناده ضعيف جدًا من طريق علي بن زيد بن جدعان، فالله أعلم بعدتهم، لكنهم أكثر من الرسل بيقين.

فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ» [متفق عليه].

❁ التفاضل بين الأنبياء والرسل:

الرسول أفضل من النبي بالإجماع.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء.

وعلى التفاضل، فبعضهم أفضل من بعض، كما قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فأفضل الأنبياء والرسل أولو العزم، وهم: محمد، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ونوح، عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

وأفضل أولي العزم من الرسل، بلا خلاف، نبينا محمد ﷺ، ثم إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على الراجح من أقوال أهل العلم.

واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين؛ فمن أهل العلم من يتوقف عن التفضيل بينهم، ومنهم من قال بأفضلية موسى بعد إبراهيم، وتوقف في التفضيل بين نوح وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خلاف أن محمدًا ﷺ أفضلهم، ثم إبراهيم، ثم موسى على المشهور.

وأما ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَةً لَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ -أَوْ لَمْ يَرْضَهُ، شَكَّ عَبْدُ الْعَزِيزِ-، فَقَالَ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ. فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَإِنَّ فُلَانًا لَطَمَ وَجْهِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا. فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُبْعَثُ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح صحيح مسلم:

قوله ﷺ: «لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ» له خمسة أوجه:

الأول: أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، فلما علم أخبر به.

الثاني: قاله أدبًا وتواضعًا.

الثالث: أن النهي عن تفضيل يؤدي إلى تنقص المفضول؛ لأن جميع الأنبياء من أهل الفضل، وبعضهم أفضل من بعض.

الرابع: أن النهي عن التفضيل الذي يؤدي إلى الخصومة والفتنة، كما هو مشهور في سبب الحديث.

الخامس: أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة، فلا تفاضل فيها، وإنما التفاضل في الخصائص والفضائل الأخرى، ولا بد من اعتقاد التفضيل؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

فصل

وكل رسول نبي، ولا عكس، فالرسل أفضل من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد اختلف العلماء في التفريق بينهم، وجمهور العلماء على أن النبي من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، لكن قد رُدَّ هذا القول.

وأحسن ما يقال فيه ما قاله شيخ الإسلام في كتاب النبوات (٢/ ٧١٧):

فالأنبياء ينبئهم الله، فيخبرهم بأمره، ونهيه، وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر، والأمر، والنهي.

فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فلا بد أن يكذب الرسلَ قومٌ؛ قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

وقال تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١١٠﴾ [يوسف:١٠٩-١١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر:٥١].

فقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج:٥٢] دليل على أن النبي مرسل، ولا يسمى رسولًا عند الإطلاق؛ لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق، كالعالم، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» [رواه أبو داود برقم (٣٦٤١)، والترمذي برقم (٢٦٨٢)].

وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة؛ فإن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ كانا رسولين، وكانا على شريعة التوراة.

قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر:٣٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء:١٦٣-١٦٤]

تنبيه:

ذكرتُ في هذا الكتاب ما قصه الله عَزَّوَجَلَّ من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، غير قصة نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه نبي التوبة والرحمة، وصاحب المنزلة العلية، والرتبة الشريفة، الذي لا يُبارى ولا يُجارى في الفضل والمنزلة، فهو سيد الناس وأكرمهم، وهو أفضل البرية، وأزكى البشرية، رفع الله قدره، وشرح صدره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره.

فهو: «عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَخِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، وَسَفِيرُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، الْمَبْعُوثُ بِالدِّينِ الْقَوِيمِ، وَالْمَنْهَجِ الْمُسْتَقِيمِ، أَرْسَلَهُ اللهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَإِمَامًا لِلْمُتَّقِينَ، وَحُجَّةً عَلَى الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، فَهَدَى بِهِ إِلَى أَقْوَمِ الطُّرُقِ وَأَوْضَحِ السُّبُلِ، وَافْتَرَضَ عَلَى الْعِبَادِ طَاعَتَهُ، وَتَعْزِيرَهُ، وَتَوْقِيرَهُ، وَمَحَبَّتَهُ، وَالْقِيَامَ بِحُقُوقِهِ، وَسَدَّ دُونَ جَنَّتِهِ الطُّرُقَ، فَلَنْ تُفْتَحَ لِأَحَدٍ إِلَّا مِنْ طَرِيقِهِ، فَشَرَحَ لَهُ صَدْرَهُ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَوَضَعَ عَنْهُ وِزْرَهُ، وَجَعَلَ الذِّلَّةَ وَالصَّغَارَ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ».

ودراسة ما يتعلق بحياته، وعلمه، وعمله، مذكورة في المطولات والمختصرات، وبالله التوفيق.

ومن أجل ذلك، وأقربه، ما سطره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الماتع المفيد **زاد المعاد في هدي خير العباد**.

عبد الحميد بن يحيى الزُّعكري

١٣/ شعبان/ ١٤٤٣هـ

قصة نبي الله آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

أبو البشرية، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له، وأسكنه الجنة، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ قصته في مواطن من القرآن، منها في سورة البقرة، وهو أول قصص قرآني، وكانت البداية في خلق آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن الله عَزَّوَجَلَّ خاطب الملائكة بقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾.

أي يقوم بمصالحها متعبدًا لله عَزَّوَجَلَّ بتوحيده وطاعته، ويخلف بعضهم بعضًا، وقيل: خليفة لأنه كان قد سكن الأرض الجن، ويذكر بعض أهل العلم أنه كان قبل الجن البن، أي أنهم سكنوا أعوامًا مديدة ودهورًا عديدة، ثم وقع منهم الفساد والإفساد، ثم أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يستخلف الإنسان بعمارتها، فقالوا أي الملائكة: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾.

قيل بأنهم قالوا هذا القول لا لعلمهم بالغيب، ولكن لما رأوا من الفساد الذي حصل من الجن والجنس الذي كان قبله، وفيه أن الملائكة قد سخرهم الله لعبادته وخلقهم لذلك، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون، فقال: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، أي من الحكم الباهرة.

فخلقه الله من تراب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩].

من تراب، أي أصل الخلقة من التراب، ثم سيأتي بعد ذلك أنه طين، ثم من سلالة من طين، ثم صلصال، تدرج في خلقته سبحانه.

فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الْأَبْيَضُ وَالْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ» [رواه أبو داود برقم (٤٦٩٣)].

السهل يعني اللين في معاملته، والحزن العضود في شأنه الصعب.

أي أن الناس على أصل خلقتهم، فمن كان أصله في الأرض الطيبة كان طيبًا، ومن كان أصله في الأرض الخبيثة كان خبيثًا، ومن كان وسطًا بينهم فكذلك، وفيه أيضًا أن السواد والبياض ليس كما يقول جماهير المفسرين وبعض الإسرائيليات أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا على ولده لأنه نظر إلى عورته فضحك فقال: سود الله وجهك، وإنما يعود السواد والبياض والاحمرار إلى نوع الأرض الذي خلق منه الإنسان.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [رواه مسلم برقم (٢٩٩٦)]، يقصد مما وصف لكم من تراب.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»، وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» [رواه أبو داود برقم (٥١١٦)]، والجعل حيوان يدفع الأذى الخارج من الإنسان أو الدواب.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ» [رواه مسلم برقم (٢٦١١)]، أي له فم ودبر وأذنان وأنف، يعني استطاع إبليس أن يفهم أن إغواء هذا المخلوق من السهولة، وفعلًا أن الإنسان يقع منه الغواية إما من نظره، وإما من سمعه، وإما من شمه، وإما من لسانه، وإما من طعامه، وإما من فرجه، نسأل الله السلامة والعافية.

وكان الحال كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر:٢٦-٢٩]، والصلصال هو الفخار والطين إذا يبس، وهذه أواخر خلقته قبل أن ينفخ فيه الروح.

عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٍ، فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ، فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ، فَزَادُوهُ: وَرَحْمَةُ اللهِ، فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ الْأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ،

وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» متفق عليه، والمراد من هذا أن تعلم أن آدم كان طويلًا.

وعن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا ضَرَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْتَنِبِ الْوَجْهَ، فَإِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ» متفق عليه.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَمَّا نُفِخَ فِي آدَمَ الرُّوحُ فَبَلَغَ الْخَيَاشِيمَ عَطَسَ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَرْحَمُكَ اللهُ» [رواه الحاكم برقم (٧٦٨٢)].

فائدة: قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ١٣١): قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾، ظاهر هذه الآية أن آدم خلق من صلصال، أي طين يابس، وقد جاء في آيات أخرى ما يدل على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾، وكقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، والطين اللازب الملتصق، والجواب أنه ذكر أطوار ذلك التراب، فذكر طوره الأول بقوله: من تراب، ثم بل فصار طينًا لازبًا، ثم خمر فصار حمًا مسنونًا، ثم يبس فصار صلصالًا كالفخار، وهذا واضح، والعلم عند الله تعالى. انتهى.

وكان أمر الله تعالى بالسجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن علمه أسماء كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١]، يعني أسماء الأشياء كلها من شجر وحيوان ونبات، علمه الله أسماء كل شيء، والملائكة شأنهم على ما سخرهم الله الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أما آدم فخلقه الله عَزَّ وَجَلَّ وجعله قابلًا للتعليم ونحو ذلك، فيزداد علمه، لهذا فضله الله وأمر الملائكة أن يسجدوا له.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة:٣٢-٣٣].

فلما بين الله تعالى فضله ومنزلته وحكمته، أي حكمة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أمرهم فسجدوا له، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، سجدوا لآدم بأمر الله، لا أنها عبادة لآدم، هي عبادة لله وطاعة له وامتثال لأمره.

وكما قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣١﴾ [الحجر:٣٠-٣١]، وإبليس ليس من الملائكة، إنما كان معهم في السماء، قيل لصلاحه وما كان عليه من العبادة، ثم ارتد عن دينه لكبره وحسده وبغيه.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ٣٣ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر:٣٢-٣٦]، طلب النظرة حتى لا يذوق الموت عدو الله، وحتى يبقى في إغواء الإنسان.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر:٣٧-٣٩]، يعترف بربه، ولكن اعترافه لن ينفعه، بما أغويتني أي أضللتني عن الصراط المستقيم.

﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر:٣٩]، أي بني آدم، لحرصه على فسادهم.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر:٤٠]، ليس لعدم محبته لإغوائهم، ولكن لعجزه عن إغوائهم وإضلالهم.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ [الحجر:٤١]، أي هذا حكم قضيته.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]، الغاوين هم الذين يتأثرون بك وبشبهك يا إبليس.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر:٤٣-٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢﴾ [الإسراء:٦١-٦٢]، أي أترصد لهم لإغوائهم، فانظر إبليس اللعين يفتخر بأنه خلق من نار ويذم الإنسان أنه خلق من طين، ووقعت فرقة تمدح النار على الطين، حتى قال قائلهم: الشمس مشرقة والأرض مسودة، والشمس معبودة مذ كانت النار، فيفتخر أن النار معبودة، لكن قد حقق العلماء أن المصالح في الأرض أكثر من مصالح النار، غاية ما في النار من مصالح يوقد فيها، وإلا فهي ليست بمحل الحياة.

﴿قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤﴾ [الإسراء:٦٣-٦٤]، يشاركك في زوجتك إن لم تسم الله عند جماعها، ويشاركك في ولدك فيخرج من صيده إذا لم تسم الله عند ذلك، وعدهم أي بالأماني وطول الأمل، وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا﴾ [الإسراء:٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]، وهذا يؤكد أن إبليس كان من الملائكة فقط من حيث السكنى، فأصل خلقته من الجن، والجن خلقوا من النار.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠].

هذه الآية يستدل بها على أن إبليس أبو الجن وكان من الجن، وإن كان قد ذهب بعضهم أنه ليس بأب لهم.

ثم أسكنه الله تعالى الجنة، وخلق له زوجه حواء من ضلعه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنِ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا» [رواه مسلم برقم (١٤٦٨)].

وفي سنن ابن ماجه (١/ ٣٣١): قال أبو اليمان المصري: سألت الشافعي عن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُرَشُّ مِنْ بَوْلِ الْغُلَامِ، وَيُغْسَلُ مِنْ بَوْلِ الْجَارِيَةِ»، والماءان جميعًا واحد! قال: لأن بول الغلام من الماء والطين، وبول الجارية من اللحم والدم، ثم قال لي: فهمت؟ أو قال: لقنت؟ قال: قلت: لا. قال: إن الله لما

خلق آدم خلقت حواء من ضلعه القصير، فصار بول الغلام من الماء والطين، وصار بول الجارية من اللحم والدم. قال: قال لي: فهمت؟ قلت: نعم. قال: قال لي: نفعك الله به.

ونهاه الله عن شجرة من شجر الجنة أن يأكل منها ابتلاء واختبارًا له، ذهب المفسرون إلى أقوال كثيرة عن نوع الشجرة، ولكن ما عندنا هي شجرة لا يعلمها إلا الله، ولا يوجد دليل ورد عن نوع الشجرة.

كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥]، أي ترك العهد.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه:١١٦-١١٩]، أي جنة فيها حياة رغيدة لا تتغير ولا تتبدل، ومع ذلك الإنسان يأتي الممنوع فيفقد المباح الكثير، فانظر إلى هذه الآية، الله عَزَّوَجَلَّ أباح لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الجنة بما فيها ونهاه عن شجرة، ومع ذلك ما زال إبليس يوسوس له حتى رغب إليه الأكل من تلك الشجرة، ففقد الخير العظيم بسبب تلك المعصية.

ومكر به إبليس عليه لعائن الله تترى من شدة بغضه وحسده حتى أكل من الشجرة، كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة:٣٦]، قيل بني آدم أعداء لبعضهم، وقيل العداوة بين جنس الإنسان وجنس الشيطان.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، الوفاة ثم تنتقلون إلى حياة البرزخ، ثم تنتقلون إلى الآخرة.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وهذا من توفيق الله لآدم أنه تاب وأناب، ومن خذلان الله لإبليس أنه أبى التوبة والرجوع عند ذلك.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة:٣٨-٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وهذا من كذبه وقياسه الفاسد.

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١]، أي آدم وحواء.

﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه: ١٢١]، أي فروجهما وأدبارهما، وكانا قبل ذلك مستورين.

﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وهذا يبيّن أن الفطرة الإنسانية تستر، بخلاف من يتعرّى في هذا الزمان.

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ

وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١١٥-١٢٦].

ومن قصصه ما قاله الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١١-١٧].

مكر من الشيطان على الإنسان بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كرّمه عليه، فحسده.

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨-٢٠].

قد قال الله عزوجل لآدم: إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى، لكن الشيطان جاء بالتلبيس.

﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ أي حلف بالله كاذبًا: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١].

وليس كل ناصح صادقًا في نصحه.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟

بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٤-٢٥].

كما قال في الآية الأخرى: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ
﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ
إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا
مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٦٧-٧٢].

أي من الأرواح التي عنده، فالله عزوجل لا يوصف بصفات الروح، الروح مخلوقة، وإنما من الأرواح التي عنده أضيفت إليه تشريفًا.

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ
مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾ [ص: ٧٣-٧٧]

مطرود ملعون.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: ٧٨-٨١].

اليوم المعلوم: يوم النفخ في الصور، فيصعق من في السماوات والأرض، ومعهم إبليس اللعين.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ
وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: ٨٤-٨٨].

فأهبط الله تعالى آدم من جنة الخلد على الصحيح من أقوال أهل العلم إلى الأرض، بسبب معصيته، بعد أن تاب عليه، فكان ما كان، والله المستعان.

أي من الامتحان والابتلاء والاختبار والشر على بني الإنسان، ولحقهم ما لحقهم من الهوان بسبب معصية أبيهم آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

عن ميسرة الفجر، قال: قلت: يا رسول الله، متى كتبت نبيًّا؟ قال: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ». [أخرجه أحمد برقم (٢٠٥٩٦)].

وقد أخذ الله تعالى العهد والميثاق من ذرية آدم، حيث أخرجهم من صلبه، كما هو ظاهر القرآن وصحيح السنة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

ويدل عليه حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ يرفعه: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ». [رواه البخاري ومسلم].

وعن أبي الدرداء، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ، فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى، فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى،

فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ: إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا أُبَالِي، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى: إِلَى النَّارِ، وَلَا أُبَالِي». [رواه أحمد برقم (٢٧٤٨٨)].

وعن عبد الرحمن بن قتادة السلمي، وكان من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ، ثُمَّ أَخَذَ الْخَلْقَ مِنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أُبَالِي، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ وَلَا أُبَالِي». قال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: «عَلَى مَوَاقِعِ الْقَدَرِ». [رواه أحمد برقم (١٧٦٦٠)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ دَاوُدُ. فَقَالَ: رَبِّ كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟ قَالَ: سِتِّينَ سَنَةً. قَالَ: أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً. فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ الْمَوْتِ، فَقَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟ قَالَ: فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنُسِّيَ آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ». [أخرجه الترمذي برقم (٣٠٧٨)].

الشاهد من الحديث: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه، فأخذ عليهم العهد والميثاق في طاعته، ولكن أبى كثير منهم الشرك والكفر والعناد. فإن قال قائل: كيف هذا؟ هل نحن مؤاخذون بذلك العهد الذي لا نذكره ولا نعلمه، لولا أنه جاء في القرآن والسنة ما ذكرناه ولا علمناه؟ يقال: لا يؤاخذ الإنسان على ما في ذلك العهد، إنما يؤاخذ الإنسان بما أرسل الله عزوجل من الرسل، وأنزل من

الكتب، بالتذكير بذلك العهد والميثاق. فمن أبى إلا الكفر والإعراض، فقد كفر وذهب شأنه، ومن استقام على دين الله عزوجل، فقد ارتفع ذكره وشأنه. فهذا هو المؤاخذة، ليست على العهد والميثاق مجردة، وإنما المؤاخذة على ما أوحاه الله عزوجل إلى رسله وأنزل به كتبه. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

❋ احتجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ:

عن أبي هريرة عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ بِذَنْبِكَ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَشْقَيْتَهُمْ. قَالَ آدَمُ: يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي، أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي؟» قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى». [متفق عليه].

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إِنَّ مُوسَى قَالَ: يَا رَبِّ، أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجَنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ آدَمَ، فَقَالَ: أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ. قَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَعَلَّمَكَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ قَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى. قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَمَا وَجَدْتَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي كِتَابِ اللهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَفِيمَ تَلُومُنِي فِي شَيْءٍ سَبَقَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِيهِ الْقَضَاءُ قَبْلِي؟» قَالَ رَسُولُ

اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى». [أخرجه أبو داود برقم (٤٧٠١)].

❁ أولاد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَةٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي». قَالَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ دَخلَ عَلَيَّ بَيْتِي فَبَسَطَ يَدَهُ إِلَيَّ لِيَقْتُلَنِي؟ قَالَ: «كُنْ كَابْنِ آدَمَ». أي الأول الذي قال: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:٢٨]. [رواه أحمد (١٥٣٥)، وأبو داود (٤٢٥٧)، والترمذي (٢١٩٤)].

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». متفق عليه [رواه البخاري ومسلم]. دعا إلى ضلالة وشر، فمن تأسى به فله من ذنبه، نسأل الله السلامة والعافية.

كان ظالمًا باغيًا، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٢٧ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٣٠ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ

﴿أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِيۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وما جاء أن اسم أحدهما قابيل (القاتل) وهابيل (المقتول) لم يثبت في حديث، ولكنه المشهور عند المفسرين وأهل السير، وجاؤوا بذلك في أبيات شعرية لا تثبت إلى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... وَوَجْهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ
وَمَا بَقِيَتْ عَلَى الْأَيَّامِ رِيحٌ ... وَلَا الدُّنْيَا تَدُومُ بِهَا صَلَاحُ
فَيَا أَسَفَاهُ عَلَى الْوَجْهِ الصَّبِيحِ ... وَيَا حَسْرَاهُ عَلَى الْعُمْرِ الْمَلِيحِ

وفي حديث المعراج عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ. قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ. قَالَ: مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: مَعِي مُحَمَّدٌ. قَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَافْتَحْ. فَلَمَّا عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا إِذَا رَجُلٌ عَنْ يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَنْ يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى. فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالِابْنِ الصَّالِحِ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الْأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى». لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يتألم الأب على أبنائه. ثم «عَرَجَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنُهَا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُ، فَفَتَحَ ...» الحديث. [متفق عليه].

استشعار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بذنبه يوم القيامة، مع أن الله قد غفر له وتجاوز عنه، إلا أنه مستشعر ذلك الذنب لأنهم عرفوا الله.

عن أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ ...». [رواه مسلم برقم (١٩٥)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل: «أنت أبو البشر..» ويذكر ذنبه فيستحي ... الحديث. [متفق عليه].

عن أبي هريرة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ آدَمُ، فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: «إِنَّ أُمَّتِي فِي الْأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ». [أخرجه البخاري برقم (٦٠٢٩)].

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادَى بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ».

وفي صحيح مسلم (٢٢٢): عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ. قَالَ: يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ.

قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ». قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ». قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ».

❁ وفاة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ:

تقدم أن عمره كان قد انتقص منه ستون سنة أو أربعون سنة على اختلاف الروايات، لتتمة عمر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى المئة، فجحد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه أعطى أحدًا شيئًا، فتم الله له الألف.

عن أبي بن كعب عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَمَّا تُوُفِّيَ آدَمُ غَسَّلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بِالْمَاءِ وِتْرًا، وَلُحِدَ لَهُ، وَقَالَتْ: هَذِهِ سُنَّةُ آدَمَ وَوَلَدِهِ». [أخرجه الحاكم برقم (٤٠٠٤)].

انتهت قصة نبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قصة نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

وهو أول رسول إلى أهل الأرض، على ما يأتي في حديث الشفاعة، وسماه الله عبدًا شكورًا، وأكثر رسول مكث في دعوة قومه إلى التوحيد، إلى غير ذلك مما يأتي إن شاء الله.

وقد ذكر الله قصته في (الْأَعْرَافِ، وَيُونُسَ، وَهُودٍ، وَالْأَنْبِيَاءِ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَالشُّعَرَاءِ، وَالْعَنْكَبُوتِ، وَالصَّافَّاتِ، وَاقْتَرَبَتْ)، وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩].

لم يذكر الله عَزَّوَجَلَّ ما كان من حياته، وإنما ذكر لنا ما يتعلق بدعوته، فهذا هو المقصود أن نتأسى به، ونعلم ما دعا إليه وما حصل له.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف:٦٠-٦١].

حسن أدب وتواضع، ورد الدعوى التي رُميَّ بها بدون زيادة ولا نقصان، مع أنه بإمكانه أن يقول لهم: أنتم الضُّلَّال.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٢-٦٣].

أي: أتعجبون من هذا؟ هذا ليس بالأمر العجيب، فإن الله يبعث في كل أمة رسولًا منهم يدعوهم للتوحيد وطاعة الله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٤].

وقال في سورة يونس: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ [يونس:٧١].

كبر عليكم أي: عظم عليكم أني أحذركم من الشرك والتنديد.

﴿مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

أي: هلموا إلى قتلي أو معاداتي، ولا تمهلوني، هذا غاية التوكل على الله، يتحداهم أن يتمكنوا منه وهيهات.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس:٧٢-٧٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ [هود:٢٥].

﴿مُّبِينٌ﴾: أي أدعوكم بكلام واضح لا إشكال فيه.

﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود:٢٦-٢٧].

وهذه دعوة يكررونها على جميع الأنبياء، يريدون ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ يرسل إلى البشر بشر مثلهم.

﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ [هود:٢٧].

﴿أَرَاذِلُنَا﴾: ضعفاؤنا.

﴿كَٰذِبِينَ﴾: أي شكوك واضطرابات كثيرة.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ [هود:٢٨-٢٩].

لأن الناس إذا سألتهم أموالهم بخلوا بها وزهدوا فيك، وإذا استغنيت عنهم ربما وفقهم الله عَزَّوَجَلَّ للاستجابة، طبيعة النفس البشرية، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦ إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ٣٧﴾ [محمد:٣٦-٣٧]. هم يحبون النبي ﷺ يودونه، لكن لو سألهم الأموال وأحفى عليهم فيها لخرج بعض الأضغان، هذا يقول: ربما هذا يأخذ أموالنا، وهذا يقول: أتعبنا، وهذا يقول: طامع فينا، لذلك كان الرسل أزهد الناس عما في أيدي الناس.

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود:٢٩-٣٠].

وهذه قد طلبت حتى من النبي ﷺ اطرد عنا هؤلاء لا يجترؤون علينا.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [هود:٣١].

حتى أرزقكم وأوسع لكم في منازلكم وفرشكم، ولا أقول لكم أيضًا أني أعلم الغيب، وإنما أنا عبد رسول، ولا أقول لكم أني ملك من ملائكة الله المسخرة في طاعته.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣١-٣٢].

ألف سنة إلا خمسين عامًا وهو يجادلهم ويدعوهم للتوحيد، فأبوا إلى الكفر والتنديد.

﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: إن كنت صادقًا وأنك رسول ونبي، فأتنا بما تعدنا من العذاب.

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ فلأمر أمر الله وحده.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود:٣٣-٣٨].

أي كذب في هذه الدعوة وهذه الرسالة.

﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ أي: علي ذنبي وإثمي.

﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ عند ذلك، بعد أن علم الله إعراضهم وكفرهم وشقاقهم.

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ **قيل**: ١٢ رجلًا أو نحو ذلك، عدد يسير حتى ما هو بعدد السنوات التي قضاها بدعوتهم، لو أسلم في السنة رجل واحد لكان قد أسلم معه **٩٥٠**، لكن ليسوا بعدد السنوات.

﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ هذه والله فيها لك عظة وعبرة يا طالب العلم، إذا لم يستجب أحد لدعوتك، ما أنت أكرم على الله عَزَّوَجَلَّ من هؤلاء، **٩٥٠** سنة ولم

يستجب له إلا ١٢ رجلًا أو نحو ذلك، ممن آمن به، وأكثرهم معرض مجادل كافر مؤذي، تارة يهددونه بالقتل، وتارة يتوعدونه.

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ [هود:٣٧-٣٨].

لأنه كان يصنع السفينة في اليابسة لا بحر فيها.

﴿قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٣٨-٤٠]، الصحيح أنه التنور المعروف الذي يخبز فيه، فار أي: خرج الماء منه.

﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود:٤٠-٤٣].

انظر ولده، أبى أن يسلم، أبى أن يستجب له، ولم ينقَد، ولم يقل: سأوي إليك أنت أبي، قال: سآوي إلى جبل، من شدة بغضه لنبيه وأبيه نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود:٤٣-٤٥].

سأل الله أن يسلم ولده.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ

عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٦-٤٩].

فنوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو أبو البشرية الثاني، يعني كل بني آدم بعد زمن نوح أبناء نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

النداء الذي ناداه نوح من قبل: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور.

﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ رادين لدعوته: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ وهذه دعوى ردت بها جميع الأنبياء والمرسلين: ما نراك إلا بشرًا مثلنا.

﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾: يريد أن يكون أعلى منكم مرتبة ومنزلة.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون:٢٤-٢٥].

يعني رجل ممسوس، به جنة، أي فيه مس، فيه جن يتكلم بكلام لا يدري معناه.

عند ذلك قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦﴾ [المؤمنون:٢٦]. وسيأتي أنه قال: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠].

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ أي إلى نوح، ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي السفينة العظيمة، ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ أي بمرأى منا، وإلا فإن الله على عرشه بائن من خلقه، ﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي بتعليمنا لك، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ أي في إغراقهم وإهلاكهم، ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ تقدم أنه الذي يطبخ فيه الخبز، ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ أي احمل في السفينة، ﴿مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ من المخلوقات والحيوان البهيم، ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي من الكافرين، لا تحمل أحدًا منهم، ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لأن الإنسان قد تأتيه رحمة على أقاربه، فنهاه الله أن يخاطبه في الظالمين.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾ أي علوت، ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾ على السفينة، ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨].

وهكذا إذا سلمك الله من شرٍ احمد الله، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾ [المؤمنون:٢٩-٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

انظر كذبوا رسولًا واحدًا فأخبر الله أنهم كذبوا جميع المرسلين، فالمكذب لواحد من الرسل مكذب لجميعهم.

﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٠٦ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٠٧﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٧]. لا أزيد ولا أنقص في وحي الله.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ الضعفاء المغلوبين.

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾: ثم إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾؛ لأنهم طلبوا منه أن يطردهم ويبقى معه الكبار.

قالوا عند ذلك معارضين له: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي بالحجارة، وهي أشد الموتات.

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ﴾ احكم، ﴿بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾ المشحون: المحمَّل، لأن الفلك هذا حمل فيه من آمن من البشر، وحمل فيه من أصناف الحيوان من كل زوجين اثنين، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ الكافرين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء:١٢١-١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت:١٤]، هذا الدعوة ألف سنة إلا خمسين عامًا في الدعوة، أما عمره ألفي سنة وقيل غير ذلك.

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ الطوفان: الماء الكثير، وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:٧٥]. أي دعا الله بالنصر والتمكين.

وقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الصافات:٧٦]: الغرق.

﴿وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ﴾ كل من جاء بعد نوح فهم من ذرية نوح، فهو أبو البشرية الثاني.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾ [الصافات:٧٨-٨٢].

قال تعالى في سورة اقتربت: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾ [القمر:٩].

يعني قالوا هذا مجنون، ثم احتقر وطرد. وهذه سنة كفرية وسنة شيطانية في رد الدعاوى الحقَّة.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ إذا نزل بك شيء ارجعه إلى الله.

﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي: كثير.

﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾: ماء السماء وماء الأرض حتى غطت الأرض الماء. تصور سفينة صارت تمشي فيها وهي كانت يابسة، والجبال لم تعصم أصحابها، الماء ارتفع إلى أعالي الجبال.

﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾: وأيضًا كانت أمواج كالجبال، فالله عَزَّوَجَلَّ له جند مما شاء، الريح جنده، الماء جنده، إلى غير ذلك.

﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾: الألواح من الخشب، والدسر من المسامير.

﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾: أي بمرأى منا.

﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾: متذكر ومتعظ، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [نوح:١-٢].

وهذه سورة كاملة في شأن نوح، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ [نوح:٣-٤].

فلم يستجيبوا له، فعند ذلك قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [نوح:٥-٧]، حتى لا يسمعوا الذكر.

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ حتى لا يروه.

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ استمروا على باطلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ ما ترك بابًا من أبواب الدعوة إلا وسلكه.

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ توبوا إليه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾: يغفر ذنوبكم ويستر عيوبكم ويجازيكم بأن:

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ بهذه الآية استدل العلماء على أن الذي ما عنده أولاد يستغفر الله، والذي ما عنده مال يستغفر الله، والذي يريد النصر يستغفر الله، الاستغفار مفتاح الخير.

﴿مَّا لَكُمْ﴾ يا معاشر الكفار، ﴿لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ تعظيمًا.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ نطفة ثم علقة ثم مضغة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ نور محرق.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ يعني أنشأكم من الأرض، هذا أبونا آدم خلقه الله من الأرض، ثم نحن خلقنا من ماء دافق من ماء مهين، ثم يعيدكم فيها في الأرض ويخرجكم إخراجًا يوم القيامة.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ مفروشًا واسعًا.

﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾: أي طرقًا وأودية وجبالًا، لتصلوا إلى أماكن سكناكم ولقضاء حوائجكم.

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾: إتبع بعضهم بعضًا، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾: بي وبديني، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾: يعني تواصوا بينهم أن يستمروا على عبادة الأصنام والأوثان، ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾: صنم، ﴿وَلَا سُوَاعًا﴾: صنم، ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾: قيل بأنها كانت صورًا لقوم صالحين ثم عبدوهم، ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾: بعدًا.

﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾: أي بسبب ذنوبهم، ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾: هذا من أدلة عذاب القبر، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾: يمنعونهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح:٢٦-٢٨].

لعل الله أوحى إليه بذلك.

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حديث الشفاعة قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «...قَالَ: فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ: عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي الْيَوْمَ قَدْ غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَكَانَتْ لِي دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي...» [رواه البخاري ومسلم].

❁ الأصنام التي عبدها قوم نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ» [رواه البخاري].

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام [رواه البخاري].

❁ وصية نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ عَلَيْهِ جُبَّةٌ سِيجَانٍ حَتَّى قَامَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ صَاحِبَكُمْ قَدْ وَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ، أَوْ قَالَ: يُرِيدُ أَنْ يَضَعَ كُلَّ فَارِسٍ وَيَرْفَعَ كُلَّ رَاعٍ. هَذَا مِنْ جَهْلِهِ. فَيُحَالُ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَجَامِعِ جُبَّتِهِ فَقَالَ: أَلَا أَرَى عَلَيْكَ لِبَاسَ مَنْ لَا يَعْقِلُ؟ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنِ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، أَيْ بِالتَّوْحِيدِ، فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعْنَ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً لَقَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ. وَأَنْهَاكَ عَنِ الشِّرْكِ وَالْكِبَرِ. فَقُلْتُ أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: لَا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟ قَالَ: سَفَهُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ» [رواه أحمد].

شاهدنا أن وصية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لولده وهي وصية لنا إلى الآن على التوحيد، وهكذا الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والبعد عن الشرك والكبر، فهما ملاك الشر. وهذه أمور قد حذرنا منها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

انتهيت قصة نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قصة نبي الله إدريس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

جاء عن جمهور المؤرخين والمفسرين: أنه من أجداد نوح أو جده، والذي رجحه البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعليه نسير، أنه من ذريته، قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم:٥٦-٥٧].

لأن نوح أول رسول إلى أهل الأرض، وإدريس وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بالرسالة والنبوة، وهو بعد نوح يقينًا، فمن قالوا قبل نوح ما عندهم أدلة صحيحة، غاية ما فيها إسرائيليات وأحاديث ضعيفة وموضوعة، ومثل هذا لا يؤخذ به.

وعن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أن نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حدثهم عن ليلة أسري به: «... ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ، قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ...» [متفق عليه].

وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: أن نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حدث لما عرج به إلى السماء قال: «أَتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ» [متفق عليه].

وأما ما جاء أنه كان كثير الذكر لله عَزَّوَجَلَّ، وطلب من الله أن يرفعه حتى يكون بين الملائكة، فأرسل الله عَزَّوَجَلَّ ملكًا، فبينما هو كذلك، قد رفعه إلى السماء، وإذا به يجد ملك الموت، فقال له: "أين تريد؟" قال: "أريد أن أقبض عبدًا صالحًا". قال: "ومن هو؟" قال: "إدريس". قال: "هذا هو معي، قد رفعته إلى السماء

الرابعة". قال: "قد عجبت، قد كتب علي أن أقبضه في السماء الرابعة". يعني قصة منكرة، لا تستقيم، ولا يدل عليها حديث صحيح. وإنما يُؤمن أن الله رفعه مكانًا عليًا بالنبوة بالرسالة بالطاعة.

وأيضًا رفعه مكانًا عليًا أن جعله في السماء الرابعة، وهذا الرفع بعد موته، لا قبل موته. لأن الذي نعلمه رفع قبل موته، هو عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بل رفعه الله إليه، على ما يأتي في قصته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. أما غير عيسى، فلا يُعلم ذلك. والله أعلم. والحمد لله رب العالمين.

تمت قصة نبي الله إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

قصة نبي الله هود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

كان من قبيلةٍ يقال لها عاد، وكانوا عربًا يسكنون الأحقافَ، وهي جبال الرمل، وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، بأرضٍ مطلةٍ على البحر يقال لها الشحر، واسم واديهم مغيث. فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فدعاهم إلى الله كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف:٦٥]، أي: أخوهم في النسب وليس في الدين.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾: أي لا يحسن التصرف، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾: في دعوى النبوة، ﴿مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف:٦٦].

قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧﴾ [الأعراف:٦٧]. أرسله بالتوحيد والعلم والعمل. ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ﴾ يخوفكم من بطش الله وعقابه وغضبه. ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾: أهلك قوم نوح واستخلفكم، ولو شاء أن يهلككم كما أهلكهم. ﴿وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ سعةً وقوةً، حتى إنهم يحملون الحجارةَ العظيمةَ.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر:٦-٨]: لشدتهم بنوا البيوت في الجبال، ونحتوا البيوت من الجبال.

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾: نعم الله عليكم الكثيرة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

قالوا معارضين لدعوته: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف:٧٠]: يعني نعبد إلهًا واحدًا، كما قالت قريش: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص:٥]. ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: من العذاب، ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

قال لهم: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١]. ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾: أصنامٌ لا تنفع ولا تضر، ما أنزل الله بها من حجة، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١].

فجاء العذاب كما وعدهم به وسيأتي: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾: أي خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥٠-٥١].

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

أمرهم بالاستغفار سبيل الفلاح، وقد تقدم في قصة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح:١٠-١٢].

وهو يقول: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: مطرًا غزيرًا مباركًا، ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾: ومنعةً إلى منعتكم، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ وذلك أن الذنوب والمعاصي هي سبب الخسران، هي سبب الضعف، هي سبب الهزيمة، هي سبب ما يلحق الإنسان في دنياه وأخراه من الفتن والمحن. فعلى الإنسان أن يكون مستغفرًا راجعًا تائبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي هذه الآية: بيان أن الاستغفار سبب لسعة الأرزاق، سبب لقضاء الحاجات، سبب لقوة البدن، سبب لعافية الروح. والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا» [رواه ابن ماجه والحاكم]. وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كثير الاستغفار.

وهذه السورة سورة هود، كل الأنبياء الذين ذكرهم الله عَزَّوَجَلَّ يذكر معهم الاستغفار، بدأ بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود:٣].

وهكذا يذكر شعيب وأمر قومه بالاستغفار، وصالح وأمر قومهم بالاستغفار.

فلا أكرم عند الله عَزَّوَجَلَّ من أن تكون مستغفرًا متذللًا راجعًا معترفًا بذنبك. ولذلك

جاء في سيد الاستغفار: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ» [رواه البخاري].

من منا لا يحتاج إلى الاستغفار؟ هذا سفيه لا يعقل الذي يظن أنه ما يحتاج إلى الاستغفار، ولو كان يصلي الليل والنهار، ولو كان يصوم ويصل الصيام بالأسحار، ولو كان يقرأ القرآن في أطراف النهار وآناء الليل، ويقول: ما يحتاج إلى الاستغفار. هذا ليس صحيحًا.

النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ينصرف من الصلاة يقول: «اسْتَغْفِرُ اللهَ، اسْتَغْفِرُ اللهَ» [رواه مسلم]. يقوم اليل وبعد ذلك ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]. يقرأ قرآنًا: يستغفر الله. يجلس مجلسًا: يستغفر الله. فنحن بحاجة إلى ملازمة الاستغفار.

هي ثلاث ورابعها الاستغفار: فعل المأمور ولابد من تقصير، ترك المحظور ولابد من تقصير، صبر على مقدور ولابد من تقصير، وعلاج هذا التقصير الاستغفار.

وقبل موت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أمره الله بالاستغفار قبل موته، هناك عبادات أكثر: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر:١-٣].

فالرسل بعثوا بالاستغفار، لكن لا يكون استغفار لسان، استغفار باللسان ويواطئ العمل القول.

ثم قالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾، أي برهان، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٣-٥٤].

وهذا هو تهمتهم المتكررة، يعني أنت الآن شبه مجنون، والسبب في ذلك أن الآلهة الصماء هي التي أصابتك بهذا.

قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ﴾ [هود:٥٤-٥٥]: بهذه الأصنام والأوثان، ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: لا تؤخروني، وهذا من عظيم التوكل: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي من التوحيد، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يعبدونه ويوحدونه، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ بكفركم وعنادكم وبغيكم، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود:٥٦-٥٧]: حافظ لأعمالكم ويجازيكم عليها أعمالكم يوم القيامة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ العذاب الذي توعدهم به وهي الريح العقيم، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ سحقًا لهم وبعدًا لهم.

ومما يدلكم على هذا، هو ما ترون في هذه الأرض الآن. أنت حين تقرأ في قصة عاد وفي قصة ثمود تجد أنها أرض مليئة بالحدائق، بالبساتين، بكثير من النعم، بالمصانع، وصارت أرضًا صحراء قاحلة. نمشي من حضرموت إلى شحن قد لا ترى مزرعة، ولا تعرف بعيرًا، إنما صحراء قاحلة. وإذا مشيت إلى جهة الربع

الخالي ما ترى إلا الرمال التي لا تصلح للحياة، فضلًا عن أن تكون مملكة. ثم أيضًا هذه الأودية التي قد مرت منها المياه الغزيرة دليل على ما كانت فيه تلك البلاد من الأنهار والخيرات والبركات، وإنما غيَّر الله عليهم بسبب كفرهم.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]. وهم كذبوا رسولًا واحدًا، لكن المكذب لواحد هو مكذب لجميعهم.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٧].

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨]: أي منطقة مرتفعة، وذلك أنهم كانوا يبنون البيوت عبثًا، ويتخذونها عبثًا لا لحاجتهم إليها، إنما لكثرة أموالهم ولسعة عيشهم.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٩]: يعني لصناعة الأحذية والملابس والأطعمة والأشياء التي يحتاجونها، في هذه الدنيا.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠]: بأعدائكم لا يرحمون لقوتهم ومنعتهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء:١٣١-١٣٤]: نِعَّم الغنم، البقر، الإبل، وبنين كثير، لهم بساتين وافرة وعيون وأنهار جارية.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء:١٣٥]: بسبب كفركم.

ماذا قالوا؟ هل استجابوا؟ قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣٧ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ١٣٨﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨]: يعني الحياة والموت ديدن في الأولين، وما هناك لا نعيم ولا عذاب ولا جنة ولا نار.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٤٠﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي تصرفنا عن الأصنام التي نعبدها، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ﴾ يعني علم عذابكم وإهلاككم، ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ أنا رسول فقط، وما على الرسول إلا البلاغ، ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣﴾ [الأحقاف:٢١-٢٣]: سفهاء في أفعالكم وأقوالكم، تجهلون أمر الله.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ أي رأوا العذاب، ﴿عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾: وذلك على ما يأتي أنها جاءتهم سحابة سوداء، فظنوها مطرًا واستبشروا بها، فإذا بها ريح فيها عذاب عظيم، ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾ فرحوا، ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٥﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

ولهذا جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: كان إذا رأى السماء تخيلت أقبل وأدبر وتغير وجهه، فإذا أمطر سري عنه، قال: «لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ﴾» **[رواه البخاري ومسلم]**.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ**» [رواه البخاري ومسلم]. أهلكت عاد بالريح الغربية، ونُصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالريح الشرقية.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣]: صاعقة أهلكهم بها.

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝﴾ [سورة القمر:١٨-٢٠]: يعني تأخذ الإنسان وترمي به، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝﴾ [القمر:٢١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝﴾: قبيلة إرم، ليست كما يقول العامة إنها مدينة تظهر في السنة مرة، وإنما هي من قبيلة إرم ذات الأعمدة، ذات البيوت المرتفعة، وكذلك الخيام التي اتخذت لها أعمدة، التي لم يخلق مثلها في البلاد لقوتهم وبطشهم، وكذلك سعة أرزاقهم وكثرة أموالهم.

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة:٤-٨].

سبحان الله، دمرهم.

وعَنْ أَبِي وَائِلٍ، عن رجل من ربيعة قال: قدمتُ المدينةَ، فدخلتُ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذُكِرَتْ عنده وافد عادٍ، فقلتُ: أعوذُ بالله أن أكونَ مثلَ وافدِ عادٍ. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَمَا وَافِدُ عَادٍ؟**» قال: فقلتُ: على الخبيرِ بها سقطت، إنَّ عادًا لما أُقْحِطُوا يعني ابتلوا بالقحط وقلة المطر بعثوا قَيْلًا من

عُظمائهم، فنزل على بكرِ بنِ معاويةَ، فسقاهُ الخمرَ وغنته الجرادتانِ، ثم خرج يريدُ جبالَ مَهْرَةَ.

انظروا، هذا دليلٌ على أنَّ عادًا كانت في هذه الجبالِ، جبالِ مَهْرَةَ القريبة من البحر. فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ آتِكَ لِمَرِيضٍ فَأُدَاوِيَهُ، وَلاَ لأَسِيرٍ فَأُفَادِيَهُ، فَاسْقِ عَبْدَكَ مَا كُنْتَ مُسْقِيَهُ، وَاسْقِ مَعَهُ بَكْرَ بْنَ مُعَاوِيَةَ، يَشْكُرُ لَهُ الخَمْرَ الَّتِي سَقَاهُ، فَرُفِعَ لَهُ سَحَابَاتٌ، فَقِيلَ لَهُ: اخْتَرْ إِحْدَاهُنَّ، فَاخْتَارَ السَّوْدَاءَ مِنْهُنَّ، فَقِيلَ لَهُ: خُذْهَا رَمَادًا رِمْدِدًا، لاَ تَذَرُ مِنْ عَادٍ أَحَدًا، وَذُكِرَ أَنَّهُ لَمْ يُرْسَلْ عَلَيْهِمْ مِنَ الرِّيحِ إِلاَّ قَدْرُ هَذِهِ الحَلْقَةِ، يَعْنِي حَلْقَةَ الخَاتَمِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات:٤١-٤٢] [رواه البخاري].

وأخرج أحمدُ عن الحارثِ بنِ يزيدَ البكريِّ قال: خرجتُ أشكو العلاءَ بنَ الحضرميِّ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمرضت بالربذه، فإذا عجوزٌ من بني تميمٍ قد انقطعَ بها، فقالت لي: يا عبدَ اللهِ، إنَّ لي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجةً، فهل أنتَ مُبَلِّغٌ إليه؟ قال: فحملتُها، فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِهِ، وإذا رايةٌ سوداءُ تخفقُ، وبلالٌ مُتَقَلِّدٌ بين يدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: ما شأنُ الناسِ؟ قالوا: يريدُ أن يبعثَ عمروَ بنَ العاصِ وجهًا. فجلستُ، فدخلَ منزلَهُ أو قال: رحلَهُ، فاستأذنتُ عليه، فأذنَ لي، فدخلتُ، فسلمتُ عليه. هل كان بينكم وبين تميمٍ شيءٌ؟ قال: فقلتُ: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميمٍ قد انقطعَ بها، فسألتني أن أحملَها إليكَ، وها هي بالبابِ. فأذنَ لها، فدخلتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إن رأيتُ أن تجعلَ بيننا وبين بني تميمٍ حاجزًا، فاجعلَ الدهناءَ. فحمِيَتِ العجوزُ واستفزَّتْ، قالت: يا رسولَ اللهِ، فإلى أينَ تَضْطَرُّكَ؟ قال: قلتُ: فإنما مَثَلي ما قالَ الأولُ: مُعَزَاةٌ حملت حَتْفَها،

حملتُ هذهِ ولا أشعرُ أنها كانت لي خصمًا، أعوذُ باللهِ ورسولِهِ أن أكونَ كما كان وافد عادٍ. قال: قلتُ: إنَّ عادًا بعثوا عبدًا لهم يقال له قَيْلٌ، فمرَّ بمعاويةَ بنِ بكرٍ، فأقامَ عندَهُ شهرًا يسقيهِ الخمرَ، وتُغَنِّيهُ جاريتانِ يقال لهما الجرادتانِ، فلما مضى الشهرُ خرجَ إلى جبالِ تِهَامَةَ، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفديه، اللهم فاسقِ عادًا ما كنتَ مُسقيهِ، فمرَّتْ بهم سحابٌ سودٌ، فنوديَ منها: اخترْ، فأومأَ إلى سحابةٍ منها سوداءَ، فنوديَ منها: خذها رمادًا رمددًا، ولا تُبْقِ من عادٍ أحدًا. قال: فبلغني أنه بُعِثَ عليهم من الريح إلا قدرُ ما يجري فيه خاتمُهُ، هذا حتى هلكوا. قال أبو وائلٍ: وصدقَ. قال: فكانت المرأةُ والرجلُ إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكنْ كوافدِ عادٍ [رواه أحمد].

يعني: جاءهم بالعذابِ، ونسيَهم، مكث شهرًا يشربُ الخمرَ في الطائفِ. إنما بقيَ هذا الذي استضافَهم يذكرُهم أنَّ أهلَ مَهْرَةَ ينتظرونَ المطرَ، وجعلَ بعضَ شعرٍ على ألسنةِ الجاريتينِ، ثم خرجَ لدعاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فأهلكَهم. والحمد لله.

وأيضًا يقولونَ: إنه سَلِمَ منهم أبو رِغَالٍ، كان في الحرمِ لم تُهْلِكْهُ الريحُ، فلما خرجَ من الحرم قُبِضَ وماتَ ولَحِقَهُم، ولذلك كان قبرُهُ يُرْجَمُ في الطائفِ.

وأخرج أحمدُ عن الحارثِ بنِ يزيدَ البكريِّ قال: خرجتُ أشكو العلاءَ بنَ الحضرميِّ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمرضت بالربذه، فإذا عجوزٌ من بني تميمٍ قد انقطعَ بها، فقالت لي: يا عبدَ اللهِ، إنَّ لي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاجةً، فهل أنتَ مُبَلِّغٌ إليه؟ قال: فحملتُها، فأتيتُ المدينةَ، فإذا المسجدُ غاصٌّ بأهلِهِ، وإذا رايةٌ سوداءُ تخفقُ، وبلالٌ مُتَقَلِّدٌ بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلتُ: ما شأنُ الناسِ؟ قالوا: يريدُ أن يبعثَ عمروَ بنَ العاصِ وجهًا. فجلستُ، فدخلَ منزلَهُ أو قال: رحلَهُ، فاستأذنتُ عليه، فأذنَ لي، فدخلتُ، فسلمتُ عليه.

هل كان بينكم وبين تميمٍ شيءٌ؟ قال: فقلتُ: نعم. قال: وكانت لنا الدبرة عليهم، ومررتُ بعجوزٍ من بني تميمٍ قد انقطعَ بها، فسألتني أن أحملَها إليكَ، وها هي بالبابِ. فأذنَ لها، فدخلتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، إن رأيتُ أن تجعلَ بيننا وبين بني تميمٍ حاجزًا، فاجعلَ الدهناءَ. فحمِيَتِ العجوزُ واستفزَّتْ، قالت: يا رسولَ اللهِ، فإلى أينَ تَضْطَرُّكَ؟ قال: قلتُ: فإنما مَثَلي ما قالَ الأولُ: مُعَزَاةٌ حملتْ حَتْفَها، حملتُ هذهِ ولا أشعرُ أنها كانت لي خصمًا، أعوذُ بالله ورسولِهِ أن أكونَ كما كان وافد عادٍ. قال: قلتُ: إنَّ عادًا بعثوا عبدًا لهم يقال له قَيْلٌ، فمرَّ بمعاويةَ بنِ بكرٍ، فأقامَ عندَهُ شهرًا يسقيهِ الخمرَ، وتُغَنِّيهُ جاريتانِ يقال لهما الجرادتانِ، فلما مضى الشهرُ خرجَ إلى جبالِ تِهَامَةَ، فنادى: اللهم إنك تعلم أني لم أجئ إلى مريضٍ فأداويه، ولا إلى أسيرٍ فأفديه، اللهم فاسقِ عادًا ما كنتَ مُسقيهِ، فمرَّتْ بهم سحابٌ سودٌ، فنوديَ منها: اخترْ، فأومأَ إلى سحابةٍ منها سوداءَ، فنوديَ منها: خذها رمادًا رمددًا، ولا تُبْقِ من عادٍ أحدًا. قال: فبلغني أنه بُعِثَ عليهم من الريح إلا قدرُ ما يجري فيه خاتمُهُ، هذا حتى هلكوا. قال أبو وائلٍ: وصدقَ. قال: فكانت المرأةُ والرجلُ إذا بعثوا وافدًا لهم قالوا: لا تكنْ كوافدِ عادٍ [رواه أحمد].

يعني: جاءهم بالعذابِ، ونسيَهم، مكث شهرًا يشربُ الخمرَ في الطائفِ. إنما بقيَ هذا الذي استضافَهم يذكرُهم أنَّ أهلَ مَهْرَةَ ينتظرونَ المطرَ، وجعلَ بعضَ شعرٍ على ألسنةِ الجاريتينِ، ثم خرجَ لدعاءِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فأهلكَهم. والحمد لله.

انتهينا من قصة نبي الله هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. والحمد لله رب العالمين.

قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ

أرسله الله إلى قبيلةٍ مشهورةٍ يقال لهم ثمود، وكانوا عربًا من العاربةِ، يسكنون الحِجْرَ الذي بينَ الحجازِ وتبوكَ. وقد مرَّ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ذاهبٌ إلى تبوكَ ومَنْ معهُ من المسلمينَ. وكانوا بعدَ قومِ عادٍ، وكانوا يعبدونَ الأصنامَ كأولئكَ. فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو عبدُ اللهِ ورسولُهُ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى عبادةِ اللهِ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأن يخلعوا الأصنامَ والأندادَ، ولا يشركوا به شيئًا، فآمنتْ به طائفةٌ منهم، وكفرَ جمهورُهم، ونالوا منهُ بالمقالِ والفعالِ، وهمُّوا بقتلِهِ، وعقروا الناقةَ التي جعلها اللهُ حجةً عليهم. فأخذهم اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

كما قال تعالى في سورةِ الأعراف: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ﴾ أي أخاهم في النسبِ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾ [الأعراف:٧٣]: أي وحدوهُ واتركوا الأصنامَ والأوثانَ. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ [الأعراف:٧٣]: حجةٌ ظاهرةٌ وآيةٌ قاهرةٌ تدلُّ على صدقِ نبوتِه، ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣]. كانت تأكلُ وتشربُ شربَ يومٍ من البئرِ، ثم تعطيهم لبنًا يكفيهم. ومع ذلكَ أبوا إلا عقرَها كما سيأتي.

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف:٧٤]: الذينَ أهلكهم اللهُ بسبب كفرِهم. ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف:٧٤]: يعني الأرضَ الواطئةَ يبنونَ فيها القصورَ. ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾

[الأعراف:٧٤]: إما أنهم ينحتونَ من الجبالِ حجارةً ويبنونَ البيوتَ، وإما كما وُجِدَ في بعضِ المناطقِ أنهم يجعلونَ البيوتَ داخلَ الجبالِ. ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف:٧٥]: يعني استهزاءً قالوا هذا القولَ. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٧٥]: مقرونَ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف:٧٦]. فعَقَرُوا النَّاقَةَ، ثم حصلَ منهم فعقروا الناقةَ، قتلوها. والذي قتلها واحدٌ، ولكن أُضيفَ إليهم الفعلُ لأنهم رضوا بذلكَ. ﴿وَعَتَوْاْ﴾ تمردوا، ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ﴾ كبرًا وبغيًا، ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي من العذاب، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الصيحةُ والصاعقةُ والزلزلةُ، ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]: موتى صرعى لا يستطيعونَ حراكًا. ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩].

وقال تعالى في سورةِ هودٍ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم﴾ يدللُ لهم على وحدانيتِهِ، ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلقكم من الأرضِ، خلقَ أباكم آدمَ، ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]: وسخركم فيها لعمارتِها. ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [هود:٦١]: من ذنوبِكم ومعاصيكم ومنها الشركُ، ارجعوا إليهِ. ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]: وهو في علوهِ على عرشِهِ مجيبٌ لمن دعاهُ.

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود:٦٢]: قالوا معارضينَ، يعني كنا نراكَ رجلًا طيبًا، كانَ نأملُ فيكَ الخيرَ لما كانَ غيرَ داعٍ لهم إلى الخيرِ. قالوا: نراكَ على خيرٍ. مع أنَّ الأنبياءَ بفضلِ اللهِ موحدونَ من قبلُ ومن بعدُ. لكن يعني قبلَ أن يدعوَهم قالوا: كنا نرجوكَ. ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنامِ والأوثانِ، ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾ [هود:٦٢]: في شكٍّ وريبٍ بسببِ ما في قلوبِهم من المرضِ. وإلا إلهٌ واحدٌ كاملٌ متصرفٌ خالقٌ مدبرٌ رازقٌ، ولا آلهةٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ. يعني عقلًا لو حُوجِجُوا عقلًا لكانَ عبادةُ الإلهِ الواحدِ المتصرفِ المالكِ الرازقِ هي المتعينةَ.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ حجةً ودينٍ، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ النبوةِ والرسالةِ، ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ أطيعكم وأعصِ ربي، ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ [هود:٦٣]: خسارةً إذا أطعتكم. ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾ لأنهم سألوهُ الآيةَ، ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ الملكُ ملكُهُ، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ [هود:٦٤]. فعقروها، فقال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود:٦٥]. وانظرْ شدةَ العذابِ الذي هم فيهِ بعدَ أن يعلموا أنَّهُ قد قُضِيَ عليهم بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، لا يهنَؤُونَ أكلًا ولا نومًا ولا شرابًا، بل ربما يذوبونَ في أجسامِهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ [هود:٦٦-٦٨]: يعني كأن لم يكونوا فيها. ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٨].

وقال تعالى في سورةِ الحجرِ: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢﴾ [الحجر:٨٠-٨٢]. ما أحدٌ يتعرضُهم ولا يخافونَ، ولا يتخذونَ البيوتَ من أجلِ أن يأمنوا فيها، هم في أمنٍ وسعةٍ، ولكن يبنونَها من أجلِ التوسعِ والتفاخرِ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر:٨٣]: الصاعقةُ. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾ [الحجر:٨٤]: من الأموالِ والمتاعِ.

قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في سورةِ الإسراءِ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

قال تعالى في سورةِ الشعراءِ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٤٥ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝١٤٦﴾، أي من الله، [سورة الشعراء:١٤٥-١٤٦]: يعني بدونَ إقامةِ حجةٍ عليكم وبدونِ إهلاكِكم إن بقيتمْ على كفرِكم. ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧﴾ [الشعراء:١٤٧]: بساتينُ كبيرةٌ عظيمةٌ، فيها من أنواعِ الزراعات، وعيونُ أنهارٍ، ﴿وَزُرُوعٍ﴾ الزروع الشيء الذي يكونُ بينَ النخلِ وبينَ الأشجارِ الكثيرةِ، ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ۝١٤٨﴾ [الشعراء:١٤٨]: يعني طلعُها جميلٌ محملٌ بأنواعِ الثمرِ. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩]: لا تنحتونَها خوفًا وإنما من بابِ الترفِ. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝١٥١﴾ [الشعراء:١٥٠-١٥١]: الذينَ أسرفوا في المعصيةِ، الذينَ يفسدونَ في الأرضِ ولا يصلحونَ.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣﴾ [الشعراء:١٥٣]: أنتَ مسحورٌ. يقولونَ لصالح: أنتَ مسحورٌ، فيكَ سحرٌ. كالذي يقولُ: اذهب تعالج. ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤].

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥﴾ [الشعراء:١٥٥]: أي من البئرِ. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الشعراء:١٥٦]. ولكنهم أبوا، فعقروها، فأصبحوا نادمينَ. يعني سقطَ في أيديهم. هكذا الشيطانُ يُزَيِّنُ لكَ المعصيةَ، ويُسَهِّلُ لكَ المعصيةَ، فإذا وقعتَ فيها ظهرَ لكَ قبحُها. فهم كانوا يَتَمَالَؤُونَ على هذه الناقةِ، ولابدَّ أن تُعْقَرَ، ولابدَّ أن كذا. فلما عقروها وارتفعَ عنهم الشيطانُ علموا أنهم هلكوا، فأصبحوا نادمينَ على فعلتِهم، ولكن حينَ لا ينفعُ الندمُ.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٥٩﴾ [الشعراء:١٥٨-١٥٩].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ﴾ [النمل:٤٥].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النمل:٤٦]: يعني يستعجلون العذاب، ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل:٤٦]: هلَّا تستغفرون الله لعلكم ترحمون.

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾ [النمل:٤٧]: تشاءمنا بك من يوم جئتنا، ما رأينا الخير. كما يقول بعضهم: من يوم جاء المطوع هذا ما رأينا إلا الفتن، ما رأينا إلا المشاكل، وما رأينا المطر بعد ينزل، وغير ذلك. هذا من التشاؤم المذموم، هذا من تشاؤم قوم صالح وقوم فرعون. ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ﴾.

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ﴾ أي خيركم وشركم وحظكم، ﴿عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل:٤٧]: عن الدين القويم والصراط المستقيم.

﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨]: كثر شرهم وبلاؤهم، وإذا وجد أصحاب الشر وجد الشر.

﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [النمل:٤٩]: يعترفون بالله في الجملة، ولكنهم ينكرون إفراده بالعبادة. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾ [النمل:٤٩]: يعني نأتيه بليل ما أحد يطلع علينا. ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ﴾ أي عشيرته، ﴿مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [النمل:٤٩]: يعني يريدون أن يقتلوه بالسر.

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥٢ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٥٣﴾ [النمل:٥٠-٥٣].

وقال تعالى في سورة (فصلت): ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝١٨﴾ [فصلت:١٧-١٨].

وقال تعالى في سورة (القمر): ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر:٢٣]: وهو واحد. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ [القمر:٢٤]: شك وريب. ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر:٢٥]: يعني يحكمون ويعارضون. فرد الله عليهم: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦]. ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾ [القمر:٢٧]: يعني أخرج الله الناقة آية لصالح، وجعله يتربص بقومه الأيام، سيهلكون بسببها. ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ أخبرهم، ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ

مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٨]: يعني الماء يوم للناقة ويوم لهم، والناقة في يومها تعطيهم اللبن الكثير، أي يحضره الناس. ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩]: أشقى القوم. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر:٣٠-٣١]: يعني الهشيم الذي تدوسه الدواب، ذاك المكسر، صاروا هكذا. ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾﴾ [القمر:٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس:١١-١٥].

وقال أيضًا في سورة الحاقة: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة:٥].

قال: وكثيرًا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة براءة (التوبة) وإبراهيم والفرقان وسورة ص وسورة ق والنجم والفجر.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر الذي عقر الناقة، فقال: «انْتَدَبَ لَهَا رَجُلٌ ذُو عِزٍّ وَمَنَعَةٍ فِي قَوْمِهِ كَأَبِي زَمْعَةَ» [رواه البخاري برقم (٣٤٧٩)].

وأخرج أحمد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحجر قال: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ، فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، وَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا، فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ، أَخْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللهِ» قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «أَبُو رِغَالٍ» فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه [رواه أحمد برقم (١٥١٠٥)].

ذكر مرور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا، فقال: «**إِنِّي أَخْشَى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ**» [رواه البخاري برقم (٣٣٧٨) ومسلم برقم (٢٩٨٠)].

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بالحجر: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**» [رواه البخاري برقم (٣٣٨٠)، ومسلم برقم (٢٩٨١)].

فانظر إلى بلد عظيمة في بنائها، عظيمة في أموالها، عظيمة في رجالها، عصت الله، فسلط عليهم صيحة، أهلكتهم عن آخرهم، فأضحوا كالأمس الدابر، جاءهم بالعذاب. وأيضًا نسيهم جاءهم بالعذاب ونسيهم، مكث شهرًا يشرب الخمر بالطائف، إنما بقي الذي استضافهم يذكرهم أن أهل مهرة ينتظرون المطر، وجعل بعض شعر على ألسنة الجاريتين، ثم خرج لدعاء الله عَزَّوَجَلَّ فأهلكوا. وأيضًا يقولون أنه سلم منهم أبو رغال كان في الحرم، فلما خرج من الحرم قبض ولحقهم، ولذلك كان قبره يرجم في الطائف.

تمت قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قصةُ نبي الله إبراهيمَ بنِ آزرَ عَلَيهِ السَّلَامُ

وهو أبو الأنبياءِ الذينَ جاءوا من بعدِهِ، وجدُّ نبينا محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وأفضلُ الرسلِ بعدَ نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وهو خليلُ الرحمنِ. قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء:١٢٥]. وما جاءَ إبراهيمُ خليلُ الرحمنِ ومحمدٌ حبيبُ الرحمنِ تفريقٌ لا دليلَ عليهِ، وكلُّهم خليلٌ للرحمنِ، والخلُّ صافي المحبةِ، قد تخللتْ مسلكَ الروحِ مني، ولذا سُمِّيَ الخليلُ خليلًا.

وهو من أشهرِ وأفضلِ الرسلِ الذينَ دعوا إلى التوحيدِ، ولهذا جعلَهُ اللهُ أُسْوَةً وقدوةً نتأسَّى بهِ ونقتدي بهِ، سواءً في التوحيدِ أو في براءتِهِ من المشركينَ والمنذرينَ. وحصلتْ لهُ مواقفُ عظيمةٌ ترى بعضَها إن شاء الله مما قصهِ اللهُ في كتابِهِ.

فقد كانَ من قومِ بابلَ، وكانوا يعبدونَ الكواكبَ والأصنامَ. وقد امتدحَ اللهُ بقولِهِ: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم:٣٧]: أي بأوامرِ اللهِ وباجتنابِ نواهيهِ. وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة:١٢٤]: الأوامرُ والنواهي على القولِ الصحيحِ، فأتمَّهنَّ (امتثلَ المأمورَ وتركَ المحظورَ). فقالَ اللهُ لهُ عندَ ذلكَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ [البقرة:١٢٤]: يُقْتَدَى بكَ في الخيرِ، قدوةً وأسوةً. ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة:١٢٤]: أي يا ربِّ اجعلْ من ذريتي أئمةً. ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]: من كانَ منهم على دينِ اللهِ وتوحيدِهِ فهو داخلٌ في العهدِ، وأما كافرٌ ظالمٌ مشركٌ ومندد فليس بداخل.

وقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت:١٦-٢٣].

فماذا كانَ بعدَ هذهِ الحججِ؟ فما كانَ جوابُ قومه إلا أن قالوا: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت:٢٤]. وهذا صنيعُ العاجزِ، أنَّهُ إذا أعيتَهُ الحجةَ هددَ بالقتلِ أو الحرقِ، وهو أشدُّ أنواعِ القتلِ. ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت:٢٤]. كما سيأتي أنَّهُ قالَ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]. مع أنها نارٌ عظيمةٌ قد أَجَّجُوهَا، وإنما رموهُ فيها بالمنجنيقِ كما يذكرُ أهلُ التفسيرِ لشدةِ حرارتِها. ومع ذلكَ قالَ: "حسبيَ اللهُ ونعمَ الوكيلُ". فاستجابَ اللهُ دعوتَهُ ورفعَ كربتَهُ وحفظَهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٢٤]. واللهِ إنها من أعظمِ الآياتِ، كيفَ؟ يعني رجلٌ يُلْقَى في النارِ يخرجُ كأن لم تمسَّهُ النارُ، لا من حرِّها ولا من كَرِّها ولا من شَؤمِّها ولا من سوادِها ولا من شيءٍ، يخرجُ يمشي. ومع ذلكَ هل آمنوا؟ أبدًا، المعرضُ معرضٌ ولو جاءتْهم كلُّ آيةٍ حتى يروا العذابَ، الإيمانُ ما ينفعُ فيهم.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ براءات، ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ جميعا اللاعن والملعون، ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]: ابنُ أخيهِ. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]: من أرضِ بابلَ إلى أرضِ الشامِ.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ إكرامًا لهُ بعدَ عمرٍ طويلٍ، ﴿إِسْحَٰقَ﴾ من سارةَ عليها السلامُ، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابنَ إسحاقَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي في ذريةِ يعقوبَ أو ذريةِ إبراهيمَ، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

دعوةُ إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبيهِ، دعاهُ إلى الإسلامِ. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ﴾ من الأصنامِ والأوثانِ، ﴿وَلَا يُبْصِرُ﴾ لشدةِ العمى وتمكنه منهُ، ﴿وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ لعجزِهِ. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ الإسلامَ. ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم:٤١-٤٤]. ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم:٤٥]: مناصرا.

قال أبوه معارضا لدعوته: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ﴾ أي بالحجارة، ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم:٤٦]. انظرْ كيفَ تمكنَ البغضُ من الأبِ لاختلافِ الدينِ، كلُّ العداواتِ قد تُرجَى مودتُها إلا عداوةَ مَنْ عاداكَ في الدينِ.

قالَ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ البارُّ: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ۝٤٧﴾ [مريم:٤٧]. ولا يُسَمَّى اللهُ بالحفي إنما هو وصفٌ مختصٌّ لإبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. فرجا اللهَ أن يغفرَ لأبيهِ بسببِ حفاوتِهِ بهِ. لكن قد نهاه اللهُ عن الاستغفارِ لهُ لأنهُ ماتَ على الكفرِ بعدَ ذلكَ كما سيأتي. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝٤٨﴾ [مريم:٤٨]. فقد استغفرَ لهُ إبراهيمُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما وعدَهُ في أدعيتِهِ، فلما تبينَ لهُ أنَّهُ عدوٌّ للهِ تبرأَ منهُ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤].

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا كنا بحرة السقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ائْتُونِي بِوَضُوءٍ» فتوضأ ثم قام فاستقبل القبلة، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ، وَدَعَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْبَرَكَةِ، وَأَنَا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ، أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ تُبَارِكَ لَهُمْ فِي مُدِّهِمْ وَصَاعِهِمْ، مِثْلَيْ مَا بَارَكْتَ لِأَهْلِ مَكَّةَ مَعَ الْبَرَكَةِ بَرَكَتَيْنِ» [رواه الترمذي برقم (٣٥٦٨)].

وأخرج البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَعَلَى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْصِنِي؟ فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَالْيَوْمَ لَا أَعْصِيكَ. فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الْجَنَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا إِبْرَاهِيمُ مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ

بِذِيخٍ مُتَلَطِّخٍ» يعني يحوَّلَهُ اللهُ إلى خنزيرٍ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار [رواه البخاري برقم (٣٣٥٠)].

قدرُ اللهِ وما شاءَ فعلَ، لعلمه انه ليس اهلا للهدايةِ، وإلا ولدُهُ خليلُ اللهِ ورسولُ اللهِ وأعلمُ الناسِ باللهِ في عهدِهِ، بل أعلمُ الناسِ باللهِ بعدَ محمدٍ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلكَ أبى أن يقبلَ منهُ الدعوةَ.

❁ مناظرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عباد الكواكب:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ [الأنعام:٧٦]: أي دخل الليل، ويكون دخول الليل بغروب الشمس. لحديث: عن عمر عن عبد الله بن أبي أوفى قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَدْبَرَتِ الشَّمْسُ مِنْ هَا هُنَا، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ» [رواه البخاري برقم (١٩٥٤)، ومسلم برقم (١١٠٠)]. وأما ما يزعمه الرافضة من اشتراط ظهور النجم والشاهد حتى يقع الإفطار، فقولهم مخالف لإجماع المسلمين.

ومبدأ الليل غروب الشمس، ليس هو الظلمة. النهار يبدأ باختلاط النور بالظلمة، والليل يبدأ ببقاء نور مع ظلمة. وهم يزعمون أن الليل لا يكون إلا بالظلمة وبرؤية النجم، قول لم يسبقوا إليه.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة:١٨٧]. وهم يتوقفون عن الأكل والشرب قبل الفجر ربما بزمن، بل إن أذانهم قبل الفجر. فعندهم انتقائية، لا أخذوا بدلالة القرآن

الصحيحة الصريحة، ولا بدلالة السنة الصحيحة الصريحة، ولا بمذهب السلف الصحيح الصريح، وإنما هي الأهواء.

قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ أي غرب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]: لأن الذي يأفل ما هو إله، يغيب، يطلع ويظهر.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام:٧٧]. وليس معنى "هذا ربي" أنه تشكك حاشاه، وإنما يقول لهم: أهذا ربي؟ كالمنكر عليهم والمُبَكِّت لهم. كيف تعبدون نجومًا يسيرها الله عَزَّوَجَلَّ؟ كيف تعبدون قمرًا يسيره الله عَزَّوَجَلَّ يظهر لكم ويغيب؟

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي من هذه الآلهة من النجوم والقمر والكواكب والشمس ومن الأصنام والأوثان، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ﴾ ناظروه، ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ خوفوه بآلهتهم أن تخبله، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ كيف أخاف من الأصنام والأوثان؟ ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ الواحد القهار المصرف لليل والنهار، ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ حجة، ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١]: بلا شك ولا ريب أن الأحق بالأمن المؤمن الموحد. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

[الأنعام:٨٢]. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

ومعنى "هذا ربي" كان إنكارًا عليهم ما هم فيه، لا المتشكك في دينه وربه. وهذا المقام مقام مناظرة لقومه وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ولا أن تعبد مع الله عَزَّوَجَلَّ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة مسخرة، تطلع تارة وتأفل أخرى فتغيب عن هذا العالم. والرب تعالى لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية، بل هو الدائم الباقي بلا زوال، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

فبين لهم أولًا عدم صلاحية الكواكب لذلك، قيل هو الزهرة، ثم ترقى منها إلى القمر الذي هو أضوى منها وأبهى من حسنها، ثم ترقى إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياءً وسناءً وبهاءً. فبين أنها مسخرة مصيرة مقدرة مربوبة. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

❁ موقفه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مع قومه وحواره معهم في بيان عجز الأصنام وضلال عابديهم

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء:٥١]: هذا دليل على أنه لم يتشكك في إلهه ومعبوده. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأصنام والأوثان، ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء:٥٢]: يعني يجلسون حولها ويلزمون المكان. ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾

[الأنبياء:٥٣]: حجة عليلة الاستدلال بالآباء مع أخطائهم. ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:٥٤]: واضح لا لبس فيه.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء:٥٥]: وهذا لفساد سريرتهم وكلامهم. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ خلقهن، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ المخبرين، ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝٥٨﴾ [الأنبياء:٥٦-٥٨]. أي في يوم عيد خرجوا إلى أصنامهم يتبركون ويتمسحون، وإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عاد إلى أصنامهم التي في المعبد وكسرها بالفأس.

﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥٩]. فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم، يعني كسرها جميعًا إلا واحدًا كبيرًا خلاه، لعلهم إليه يرجعون. يعني يقولون: من الذي كسر أصنامنا؟ وربما إذا كانوا عقلاء يقولون: لا أنت ما أنت إله، كيف تكسر الأصنام حولك وأنت تتفرج عليهم؟ لكنهم لا يعقلون.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝٦١﴾ [الأنبياء:٦٠-٦١]: أي عذابه وما ينزل به. ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝٦٢ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ۝٦٣﴾ [الأنبياء:٦٢-٦٣]. وهذه إحدى كذبات إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما جاء في الحديث: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، كُلُّهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ» [رواه البخاري برقم (٣٣٥٣)، ومسلم برقم (٢٣٧١)]. وهي من التعاريض، ليست بكذب صريح.

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالعتاب، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء:٦٤].

يعني: كيف تعبدون أصنامًا لا تنفع ولا تضر؟ ثم جاءهم الشيطان، ثم نكسوا على رؤوسهم، يعني: رجعوا عن قولهم الأول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء:٦٥]. يعني: كيف تحاججنا وتقول: اسألوه، وأنت تعلم أن هذا الصنم لا يتكلم ولا ينطق؟

فعند ذلك وبخهم بقوله: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء:٦٦-٦٧].

لكن هل استجابوا؟ لا. ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٦٨]. فجمعوا الحطب الكثير، وجمعوا الناس ليروا ما يحل بإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فرموه فيها. وقال: "حسبي الله ونعم الوكيل". فكان جواب ربه له: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٩]: بردا وسلامًا، بردا يتقي حرها وسلام يتقي قرها. ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]: ماتوا على الكفر والله المستعان.

وقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء:٦٩-٧٠]. هذا ليس سؤال استفسار، هو سؤال إنكار، وإلا هو يعلم أنهم يعبدون الأصنام والأوثان. ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ هذه الأصنام تسمعكم؟ ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٧١-٧٣]: إذا نزل بكم حاجة؟ ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء:٧٤]: يعني لا تنفعهم ولا تضرهم ولا تسمعهم ولا تجيبهم، وإنما وجدوا آباءهم يعبدونها فعبدوها معهم.

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا
رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ
فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ
ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾ [الشعراء:٧٥-٨٣]. انظر إلى الإله الحق خلقهم من العدم ووفق وهدى وأطعم وأسقى.

أما تلك الأصنام والأوثان، لو جاء الكلب يبول عليها ما استطاعت أن تصده أو ترده. كما قال بعضهم: أرسلني أسيادي بلبن وزبد للصنم، فأردت أن آكل وأشرب فخفت، فجئت فوضعتها له، فجاء الكلب فشرب اللبن وأكل الزبد ثم بال على الصنم، وهو ينظر! وهذا خاف من صنم! وقد رأيناهم هؤلاء في بلاد سريلانكا وفي غير ذلك من البلدان مثل الهند التي تعبد الأصنام. لا إله إلا الله، نسأل الله السلامة والعافية. يشتري إلهه من الدكان، يدخل الدكان ويشتري الإله ويخرج يعلقه في السيارة، يربطه في السيارة معلق ويطيبه، وإذا به يركع ويسجد له وهو الذي بناه! ما أسوأ عقولهم وما أسمج أفعالهم! ونحن والله لولا أن منَّ الله علينا لربما كنا منهم ومثلهم. فالحمد لله الذي هدانا لهذا الدين القويم والصراط المستقيم.

انظر إلى قوم إبراهيم، يعني تظن ما لهم عقول؟ لهم عقول، كانوا يصنعون وكانوا يتاجرون وكانوا يعملون ولهم علوم لكن غير نافعة، ولهم أسماع وأبصار لكن لا تغني عنهم شيئًا. أبصار ويعبدون حجارة صماء. حاججهم أنها لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا شيء، أقروا بذلك ثم عادوا إلى إحراقه.

قال تعالى في سورة الصافات: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣﴾ [الصافات:٨٣]: أي من شيعة نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إبراهيم ابن آزر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. ومن ذهب إلى أن آزر عمه فقوله مخالف للصواب، فقد نص الله في الكتاب على أنه أبوه، والمتبادر إلى الذهن ابتداءً أنه الأب الصلبية.

﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات:٨٤]: من الشرك والبدع والمعاصي، فلا أكرم من سلامة القلب لأنه محل نظر الله إلى العبد.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات:٨٥]: سؤال إنكار لا سؤال استفهام، فهو يعلم أنهم يعبدون الأصنام.

﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات:٨٦]: آلهة مكذوبة مصنوعة تعبدونها من دون الله.

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]: ظنهم السيء، ظنوا بالله ظن السوء، ولو كانوا قد أحسنوا ظنهم بالله لعبدوه.

﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ [الصافات:٨٨]: لأنهم كانوا يعبدونها ويرجونها ويتقربون إليها.

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ﴾ [الصافات:٨٩]: وهذه من إحدى كذباته التي قالها عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. وتوجيهها: إني سقيم مما تعبدون من الأصنام، مريض كما يقال قلب من هذه الأشياء.

﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ﴾ [الصافات:٩٠]: ذهبوا إلى عيدهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾ [الصافات:٩١]: رجع إلى أصنامهم.

﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ [الصافات:٩١-٩٢]: كالمتهكم بهم، تتكلمون.

﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ [الصافات:٩٣]: بقوته بيمينه، يعني ضربهم ضربًا حتى كسرهم.

﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات:٩٤]: يجرون ويجتمعون.

﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]: منكرًا عليهم، وذلك بعد أن حاججهم لأنه في مبدأ الأمر. قال أتعبدون ما تنحتون كما تقدم معنا. خلقكم وخلق الذي تعملونه، وبهذا يستدل أهل السنة على أن أفعال العباد مخلوقة لله.

﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧]: يعني ابنوا بنيانًا وأوقدوا فيه النار حتى يموت شر موتة.

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [الصافات:٩٨]: ونجاه الله.

عن أم شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بقتل الوزغ وقال: «كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [رواه البخاري برقم (٣٣٠٧)، ومسلم برقم (٢٢٤٠)]. حيوان سيء، وإلا ما عسى نفخ الوزغة أن تفعل، لكن لسوء هذا الحيوان جعل ينفخ على هذا النبي الكريم، ولهذا أمر الله بقتل هذا الحيوان ووعد عليه لمن قتله في الأولى بمائة حسنة.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اقْتُلُوا الْوَزَغَ فَإِنَّهُ كَانَ يَنْفُخُ النَّارَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ» [رواه البخاري برقم (٣٣٠٦)، ومسلم برقم (٢٢٣٩)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل" قالها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ألقي في النار، وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] [رواه البخاري برقم (٤٥٦٤)].

ويزعم غلاة المتصوفة في هذا الموطن أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جعل يقول: "علمك بحالي يغنيك عن سؤالي"، بمعنى أن الدعاء ينافي التوكل، وإنما تكل أمرك إلى الله وهو عالم بحالك، عالم بظاهرك وباطنك. وقولهم باطل، فنحن نؤمن أن الله بكل شيء عليم، ومع ذلك أمرنا بدعائه ورجائه. وها هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخبرنا أن إبراهيم قال: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، وهي من أعظم الأدعية، أي الله كافينا وهو نعم من يتوكل عليه ويعتمد عليه لجلب المنافع ودفع الشرور.

❁ ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع النمرود مدعي الربوبية:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة:٢٥٨]: أي أن النمرود كان رجلًا جبارًا باغيًا ادعى الربوبية، فحاجه إبراهيم وناظره. فقال له إبراهيم: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]: وأنت عاجز عن هذا. فقال هذا الجبار: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:٢٥٨]. قالوا: أخذ رجلين فقتل أحدهما وأبقى الآخر، ثم قال: ألا ترى أني أحييت هذا وقتلت هذا؟ وهذا لسوء فهمه. فقال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾

[البقرة:٢٥٨]. وهذه آية عظيمة لا قدرة لإنسان في تحويلها، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]: وخُصم وانقطع، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:٢٥٨].

❁ هجرة الخليل إلى بلاد الشام:

بعد أن وضعوه في النار وسلمه الله عَزَّوَجَلَّ، رأى أن يخرج من بين أظهرهم فهاجر إلى الشام.

قال الله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت:٢٦]: ابن أخيه، ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت:٢٦]: العزيز الذي لا يُغلب، والحكيم في جميع شأنه. ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ بعد هجرته، ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [العنكبوت:٢٧]: يعني من سارة. وقد وهبه الله قبل سارة، قبل يعقوب، إسماعيل من هاجر. ﴿وَجَعَلۡنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت:٢٧]: كل الأنبياء الذين جاءوا من ذريته بعده. ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [العنكبوت:٢٧]: ثوابًا في الدنيا وخيرًا، ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٧١]: بيت المقدس وما حولها. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةًۖ﴾ [الأنبياء:٧٢]: وهبنا له إسحاق ابنًا، ويعقوب نافلة وزيادة وعده بها. وهذا رد على من زعم أن الذبيح هو إسحاق، كيف وعده الله بيعقوب ثم يقول له اذبح إسحاق؟

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء:٧٢-٧٣].

❁ قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملك مصر:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لم يكذب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ: قوله ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ٨٩﴾ [الصافات:٨٩]، وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء:٦٣].

وقال: بينما هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلًا معه امرأة من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها: إذا قال له هذه زوجتي يقتله ويأخذها، وإذا قال له هذه أختي يبقيه ويأخذها. فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذته رعشة، فقال: ادعي الله لي ولا أضركِ. دليل على أنهم يؤمنون بالله في الجملة. فدعت له فأطلق. ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها وأشد، قال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأخدمها هاجر. فأتته وهو قائم يصلي أي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو الله بسلامتها، فأومأ بيده مهيًا. قالت: رد الله كيد الكافر أو الفاجر في نحره، وأخدم هاجر. [رواه البخاري برقم (٣٣٥٣) ومسلم برقم (٢٣٧١)].

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء. يعني أم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ وأم العرب.

وسيأتي معنا ما يتعلق بهجرة إبراهيم إلى البيت العتيق وما قص الله في ذلك الموقف.

❁ ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة، وبناؤه البيت العتيق:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٦-٢٧].

وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ حين رزق إبراهيم الولد الأول وهو إسماعيل من هاجر عليها السلام، غارت سارة عليها السلام فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى نبيه إبراهيم أن يأخذ هاجر وابنها إلى أرض مكة لأمرٍ علمه ولحكمةٍ أرادها. وكانت مكة بلدًا يابسًا لا ماء فيه ولا حياة، حتى نزلها إسماعيل وأمه على ما يأتي.

عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: «أَوَّلُ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لِتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ. ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ» يعني فوق زمزم الآن، وإلا ما كان فيه زمزم ولا فيه مسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء. فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاءً فيه ماء. ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل وقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت

إليها. فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذًا لا يضيعنا [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

وهذه موعظة عظيمة من امرأة جليلة، وضعها زوجها في وادٍ غير ذي زرع، وليس فيه من ساكن. في وادٍ لو مشيته الآن من عدم وجود الناس لجاءتك الرهبة والوحشة، فكيف البيتوتة فيه والبقاء مع حره وقره؟ لكنها قالت: "إذًا لا يضيعنا". فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدبر شأن العباد بما يعجز عنه العبد بنفسه. فالله أعلم بالمصالح والمآلات، ولكنكم قوم تستعجلون. وإلا فالمؤمن لا يضيعه الله، لا دنيا ولا آخرة. ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج:٣٨]. المؤمن لا يضيعه الله، لا في رزقه ولا في علمه ولا في عمله ولا في جميع شأنه. ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف:٣٠]. المؤمن لا يضيعه الله، ولا يسلط عليه أعداؤه تسليطًا ليكسروا به شوكة الإسلام ويستأصلونها، وإن وقع بعض الابتلاء والاختبار، فهو لرفع درجته ولزيادة منزلته. «إذًا لا يضيعنا الله».

لتكن عندك اليقين النازل على القلب. فالله يقول: «أنا عند ظن عبدي بي» [رواه البخاري برقم (٧٤٠٥)، ومسلم برقم (٢٦٧٥)]. إذا ظن أن الله لا يضيعه، لا يضيعه.

قال: «ثُمَّ رَجَعَتْ. فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرُونَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧]» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

وجعلت أم إسماعيل ترضع. وفي هذا أيضًا دعاء الوالد لولده، لا تبخل على ولدك بالدعاء. انظر إلى إبراهيم، وضعهم في تلك المفازة ومع ذلك دعا الله لهم بالخير، بخيري الدنيا والآخرة. فأكرمه الله بذلك.

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا.

فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا**» [رواه **البخاري برقم (٣٣٦٤)**].

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه! صه! تريد نفسها ثم تسمعت، فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسمعتَ، إن كان عندك غواث. فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال: بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَأَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِلَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

لله الحكمة قال: «فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لَا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللهِ، يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

هذا وعد آخر في هذا الحديث بأن الله لا يضيع أهله، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ أهله. عليك فقط أن تكون من أهل الله، فإذا كنت من أهل الله لا يضيعك الله. المصيبة أن نظن أننا من أهل الله ولسنا كذلك. كما يقول كثير من الناس: الله معنا. ما أدراك أن الله معك معية حفظ وكلاءة ونصر وتأييد؟ ولو كان الله معك فأبشر بالخير العظيم. لكن هذه المعية الخاصة لابد لها من شروط وضوابط. قال الله: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة:١٢]. فلابد أن تأتي بأمر الله. وهنا: "إن الله لا يضيع أهله". وقد جاء في الحديث: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ» [رواه أحمد برقم (١٢٥٩٣)، والنسائي برقم (٨٠٣٦)، وابن ماجه برقم (٢١٥)]. العامل بالقرآن، الملتزم بالقرآن، الملتزم بالسنة، يبشر بالخير العظيم.

قال: «وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الْأَرْضِ، كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ. فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رِفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَلَيْسَ فِيهِ مَاءٌ. فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ. فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

قال: «وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ، فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ». كانوا قومًا كرماء، امرأة، ما قالوا: الماء ليس لك، ولم يتعدوا على حقها،

ومجورتها كما يفعل الناس الآن في الظلم والظلمات التي هم فيها، استأذنوها. قالت: «وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ». قالوا: نعم [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)]. أي لا تمنعوا أحدًا منه.

قال ابن عباس: قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْأُنْسَ» لأنها كانت من مصر، في المدينة، «فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ، وَشَبَّ الْغُلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ.

فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَمَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ. فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. وَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عُتْبَةَ بَابِهِ» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

المرأة التي لا تشكر نعيم زوجها وفضل زوجها، وتشكر ربها قبل ذلك، امرأة سوء. البقاء معها نكد والعيش معها سيء. بينما المرأة الصالحة الشاكرة الذاكرة الطائعة، الحياة معها سعادة والبقاء معها رشد. فانظر إلى إبراهيم يأمر ولده أن يطلق امرأته لما رأى منها سوء العبارة الدال على سوء الحال. إذا كانت هذه عبارة مع رجل جاء يسألها ربما لا تعرفه قبل ذلك، فكيف مع زوجها الذي عندها؟ ليل نهار ربما تصبحه سخطًا وتمسيه سخطًا.

قال: «فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلَامَ

وَيقُولُ: غَيِّرْ عُتْبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكَ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الْحَقِي بِأَهْلِكِ. فَطَلَّقَهَا وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى.

فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ فَسَأَلَهَا عَنْهُ، فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ، وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتْ: اللَّحْمُ. قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: الْمَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالْمَاءِ»

وإلى الآن تجد هذا المأكول، اللحم والماء، في مكة متوافرًا.

قال ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ. قَالَ: فَهُمَا لَا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلَّا لَمْ يُوَافِقَاهُ»

قال: «فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمُرِيهِ يُثَبِّتْ عُتْبَةَ بَابِهِ. فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عُتْبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعُتْبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ فَصَنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الْوَالِدُ بِالْوَلَدِ، وَالْوَلَدُ بِالْوَالِدِ»

أي تعانقا ورحب بعضهم ببعض فرحًا واستبشارًا، «ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَاهُنَا بَيْتًا، وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

هذا هو الأدب الرفيع حتى من الآباء مع الأبناء. انظر كيف راجعه وطلب منه الإعانة بما يستطيعه.

أحيانًا الأب يضغط على ولده حتى يرى منه الجفاء ويرى منه العقوق. والمثل عند العامة: "البر مقسوم". إذا أردت من ولدك البر فكن بارًا به، إذا أردت من ولدك الإحسان فكن محسنًا إليه، إذا أردت من ولدك المعروف فكن باذلًا للمعروف له. فأنت إذا شددت على ولدك شد عليك. نعم، قد يضطر الإنسان أحيانًا إلى بعض التأديب، لكن لا يوصله إلى حد أن يخرج ما في قلبه من الضغن إذا اشتد عليه الحال. وأيضًا في الأعمال لا يكلفه ما لا يطيق، ولا يكلفه عملًا ليس بواجب عليه إلا من باب الإحسان. انظر إلى هذا المثل النبوي: "الله أمرني بشيء، تعينني؟" قال: "أعينك، وافعل ما تؤمر". فليت أننا نأخذ مثل هذه التوجيهات والأساليب في كثير من شؤوننا. لكن الحق أن كثيرًا من تعاملاتنا قد يعوزها التعامل الشرعي، فلذلك نجد أنها قد لا تنجح وقد لا تأتي بثمرة.

قال: «**فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِوَهُوَ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَوَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولَانِ:** ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]»

قال: «**فَجَعَلَا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولَانِ:** ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾»

فقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اخْتَتَنَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَاخْتَتَنَ بِالْقَدُومِ**» [رواه البخاري برقم

(٣٣٥٦) ومسلم برقم (٢٣٧٠)]. ظن بعضهم أن القدوم موضع من الأرض يقال له القدوم، والصحيح أنه اختتن بالقدوم، الآلة، أخذ تلك الآلة وقطع بها الختان.

❁ قصة الذبيح:

الذبيح هو إسماعيل، وإنما قال بأن الذبيح إسحاق اليهودُ والنصارى، وذلك حقدًا منهم وبغضًا على أهل الإسلام أن تكون هذه المكرمة لجد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعني قام يخطو ويمشي، وبدأ يفهم الكلام. ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات:٩٩-١٠٢].

قال العلماء: لما اتخذ الله عَزَّوَجَلَّ إبراهيم خليلًا، وكان بعد ذلك حصول الولد، أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يختبر إبراهيم هل ما زال على شأنه أم أن حبه للولد ذهب به، فابتلاه الله في ولده الوحيد أن يذبحه، فقام بما أمره الله، ثم سلم الله الولد وجعل الأضحية شعارًا لهذا الفعل وتقربًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ إبراهيم وإسماعيل، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ وضعه على جنبه، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ أن يؤمر بذبح ولده. ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:١٠٣-١٠٧]. والقول بأنه كبش كان يرتع في الجنة، أو أنه كبش يدخل الجنة، لا دليل عليه.

فداه الله بذبح.

﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٠٨﴾ أي ذريته، ومنهم محمد الأمين صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.
﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١﴾
[الصافات:١٠٨-١١١].

﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ انظر وتفكر بعد أن أمره بذبح الولد وكاد أن يذبحه، وقد انتهت القصة في قضية الذبح، قال: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [الصافات:١١٢-١١٣]: محسن بالإيمان، ظالم بالكفر والطغيان.

وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه و الله أعلم من كعب الأحبار أو من صحف أهل الكتاب. وليس في أن الذبيح إسحاق حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز. ولا يُفهم هذا من القرآن بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق، من قوله: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١]. قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق وهو صغير قبل أن يولد له؟ هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المتقدمة. والله أعلم.

وأشبه الناس به رسولنا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. فعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا صَاحِبُكُمْ

يَعْنِي نَفْسَهُ وَرَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ» [رواه البخاري برقم (٤٦٣٦) ومسلم برقم (١٦٤٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٠].

يعني كما جمع الله لك هذا الطير بعد أن فرقته، فكذلك يجمع الله عَزَّوَجَلَّ الناس يوم القيامة من قبورهم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾» [رواه البخاري برقم (٤٥٣٧) ومسلم برقم (٢٣٧٤)].

معنى الحديث: لو شك إبراهيم فنحن أحق بالشك منه، لكن إبراهيم لم يشك، ونحن كذلك لم نشك. ولكن كان إبراهيم عنده علم اليقين، فأراد أن يرى عين اليقين. فرق بين العلم النظري وبين العلم العملي.

❁ براءة إبراهيم من المشركين:

وفي قصة إبراهيم من العبر الشيء العظيم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

فيها معنى "لا إله إلا الله". ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٨].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾ [الممتحنة:٤]. ونهاه الله عن الاستغفار للمشركين بعد ذلك.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٥-٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. خاف على نفسه الشرك، فكيف بغير إبراهيم؟ ينبغي أن نخافه على أنفسنا وعلى أبنائنا.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي الأصنام، ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦].

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هاجر وولدها إسماعيل كما تقدم، وهو مكة، ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ أي قبل بنائه، في المكان الذي سيكون فيه البيت المحرم. ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وفعلًا تُجبى إلى مكة ثمار الأرض. تجد في مكة ثمار الأرض جانية متوفرة من زمن قديم ومن زمن حديث. في الزمن القديم لما كانت مكة حالها حالة والناس في بُعد، رزقها الله عَزَّوَجَلَّ الطائف. الطائف قريبة من مكة، فيها الأعناب، فيها

الفواكه، فيها ما لذ وطاب، وكان يُجلب إلى مكة في تلك الأزمنة البعيدة. وهذه الأيام مع توفر النقل، صار يُجلب إلى مكة الشيء الكثير من الفواكه والخضار واللحوم وغير ذلك.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم:٣٨-٤١]. والدعاء لأبيه قبل أن يوحى إليه أنه من أهل النار كما تقدم.

بهذا نكون قد انتهينا من قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يعتبر أبو الأنبياء الذين جاءوا بعده، كما أن نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعتبر أبو البشرية الثاني، لأن الله عَزَّوَجَلَّ أهلك ما لم يكن من نسله في الغرق.

قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن أُخْتِ إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير موضع من كتابه المبين. فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠] فاحشة اللواط، الزنا فاحشة واللواط فاحشة أشد ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠].

وبلغ بهم الشأن أنهم يجاهرون بها ويتبجحون بها، وهذه مصيبة وبليّة أن تتغير الفطرة ويصبح الإنسان معاقرًا لما يتنزه عنه البهيم من الحيوان. قلَّ أن تجد في الحيوان البهيم الذكر يأتي الذكر. وابتلي كثير ممن تنكست فطرته وتغير حاله وساء فعله أن يعاقر هذه الفاحشة كما هو الحال مع النسوان.

ومن فعل هذا الأمر قلَّ حياؤه وكثر شره وفساده، وأصبح لا يرعوي ولا ينزجر عن باطل، لأنه يصاب ببغض لمن سلمت فطرته، يكون عنده حقد عليهم.

ويسعى الماسون العالمي الممثل في الأمم المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية دمر الله عليهم إلى تمكين اللوطيين من مفاصل الدول ومن كثير من شؤون العالم لإشاعة الفاحشة وإشاعة الفساد. وهذا الفعل منذر بخراب العالم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ عذب قوم لوط بما لم يعذب به أمة، أهلكهم عن آخرهم ودمر بيوتهم مع أشخاصهم، فنسأل الله السلامة والعافية.

ومن هذا الباب ما تنشره المنظمات المنتشرة في البلاد الإسلامية ومنها اليمن، يَستغلون فقر الناس وحاجة الناس والحروب وغياب الدولة، ويبعثون شياطينهم التي لا ترحم ولا تعرف إلا المكر والكيد. فيعبثون بمحارم الناس وما كتبته المرأة

التي كانت في صفهم وغُرر بها لما يندى له الجبين، من أخذهم لبنات المسلمين والذهاب بهن إلى أوروبا وإفسادهن في الفنادق بدعوى الوظيفة أولًا والمساهمة في تنمية الأسرة ثانيًا.

ثم إذا خلوا بهن في فنادقهم وأرسلوهن إلى أوروبا، إذا بهم يسعون لمقصد واحد وهو تحرير هذه المرأة زعموا من قيود التقليد وقيود الاضطهاد، وهم الذين يضطهدونها، فتصبح فريسة لهذا المجرم ولذلك المجرم، يقضي فيها وطره بغير عقد شرعي وبغير أن يقوم بما أوجب الله عليه من رعايتها ورعاية أبنائها إن وجد لها أبناء.

فهذه المنظمات لا تركن إليها ولا تفرح بها، منتشرة في صفوف الناس بدعوى رفع المعاناة وهي التي تزيد المعاناة. انظروا قبل أيام يسعون في استصدار قرار من وزارة الداخلية في السماح للمرأة بالحصول على الجواز بدون عودة إلى ولي أمرها. يعني ما مع اليمن إلا هذه المشكلة! اليمن يعاني من مشاكل كثيرة في اقتصاده، في حروبه، في نظامه، في كثير من شأنه، وهم يسعون لاستصدار هذا القرار من أجل أن تحصل هذه النساء اللاتي يُجنَّدونهن على الجوازات ويسافر بها. ربما التي من صنعاء تقول لأهلها: "أنا أشتغل في عدن"، وهي في أوروبا بين الخمارين وبين الفاسقين.

فعلى المسلمين أن يتقوا الله في أنفسهم، فإشاعة الفاحشة مصيبة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [النور:١٩]. كيف بمن يتعاطاها؟ كيف بمن يشيعها؟

وعلى الدولة أن تتقي الله عَزَّوَجَلَّ. أمانة! المسلمون في ذمتها أمانة. كيف ترضى لهذه المنظمات أن تعيث في الأرض الفساد بدون رقيب؟ يتاجرون بالأعضاء، بعض الأطفال، بعض النساء، بعض من يأخذونهم يتاجرون بأعضائهم. ولهم أماكن في إب، في صنعاء، في عدن، في كثير من المناطق، وشهادات موثقة. ومسؤولون يمررون لهم هذا البلاء، ويضيع الإنسان ما يدري أين ذهب. دخل هذا البيت وانتهى. تجارة بالأعضاء، تجارة بالجنس، تجارة لإفساد المجتمعات إلى غير ذلك. نسأل الله السلامة والعافية.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٠ - ٨٢].

يتحكمون بهم! أصبح أصحاب الفساد يتحكمون بالصالحين.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف:٨٣ - ٨٤].

أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك.

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٦٩ - ٧٠]. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ سَارَةُ ﴿فَضَحِكَتْ﴾ [هود:٧١] على حقيقتها، وقيل حاضت. ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ

عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود:٧١ – ٧٤]. يعني كيف تهلكونهم وفيهم نبي الله؟ ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود:٧٥ – ٧٧]. خوفًا أن ينتهكوا عرض ضيوفه، اشمئزازًا من هذا الفعل المستقبح. ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ [هود:٧٧]. يوم شديد. ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٧٨]. يجرون ويتسابقون بغير حياء ولا موعظة ولا معروف. ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:٧٨]. فاحشة اللواط. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ [هود:٧٨]. نساؤكم أتوهن وكونوا معهن. ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ [هود:٧٨]. خلقهن الله لهذا الشأن. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ [هود:٧٨]. ما رأى منهم صاحب عقل ولا مروءة. ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ [هود:٧٩]. يعني ما لنا رغبة في النساء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود:٧٩].

لا يُفهم من هذا أن لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض عليهم ماذا؟ بناته الصلبيات يزنون بهن أو يزوج الواحدة منهن مجموعة؟ لا، وإنما أمرهم أن يأتوا نساءهم، لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾ [هود:٧٩ – ٨٠].

قد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَحِمَ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود:٨١] أي الملائكة ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨١ – ٨٢] يقولون إنها في مكان البحر الميت هذه المدينة سدوم ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود:٨٢ – ٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣ قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحجر:٥١ – ٦٠].

كانت منافقة، كانت منافقة تخبر قومها بشأن لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ. وليس معنى ذلك أنها خانت لوطًا أنها كانت زانية. قال ابن عباس: "ما زنت امرأة نبي قط".

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾ [الحجر:٦١-٦٢] يعني ما عرفهم ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [الحجر:٦٣] بالعذاب ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ ٦٥ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ [الحجر:٦٤ – ٦٦] يعني في الصباح سيأتيهم العذاب وينتهون ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الحجر:٦٧] يعني بالضيوف، يستبشرون أنهم سيفعلون الفاحشة، كما هو الآن فيما يسمى بالاغتصاب الجماعي، أرادوا هذا،

قبحهم الله وقاتلهم ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر:٦٨ - ٧٢] أقسم الله بحياة نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ ٧٤ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ ٧٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر:٧٣ - ٧٧].

أي أن مدينتهم في طريق السائر المسافر إلى الشام، فيها آية وعبرة حيث أهلكهم الله عَزَّوَجَلَّ ودمدم عليهم ودمرهم.

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٦٠] كذبوا رسولهم لكن المكذب لواحد كالمكذب لجميعهم ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء:١٦١] أخوهم في النسب لا في الإسلام ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٦٢ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٦٣ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٤﴾ [الشعراء:١٦٢ - ١٦٤].

وهكذا ينبغي للداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ أن يكون متنزهًا عن سؤال الناس أموالهم، فإن الناس إذا سُئلوا الأموال بخلوا بها وخرجت أضغانهم، والإنسان بطبيعته شحيح على المال. فلهذا كره السلف لأهل الحديث أخذ الأجرة على التحديث وهجر من فعل ذلك.

ثم قال: ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء:١٦٥ - ١٦٦] يعني يتركون النساء ويأتون الرجال.

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ [الشعراء:١٦٧] أي المطرودين.

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ [الشعراء:١٦٨] المبعدين الكارهين ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩] وأيضًا مما ينزل بهم من العذاب الأليم.

وفي هذه الآية أنك تدعو الله لنفسك وأهلك بالسلامة من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا سيما في هذا الزمان، ينبغي لأحدنا أن يدعو لنفسه وأن يدعو لزوجه وأن يدعو لولده وأن يدعو لجميع المسلمين أن يسلمهم الله عَزَّوَجَلَّ من الفواحش، فاحشة اللواط وفاحشة الزنا وغير ذلك مما فحش في قوله وما فحش في فعله.

فإن الشرور قد كثرت وتنوعت ووسائلها قد كثرت وتنوعت، ولا يسلم إلا من سلمه الله عَزَّوَجَلَّ. وسائل التواصل الاجتماعي من الواتساب وفيسبوك وتويتر وتلجرام وتيك توك ويوتيوب وغير ذلك من الوسائل لها دور عظيم في إشاعة الفاحشة بين الناس. وهكذا وسائل المنظمات التي تسعى لإفساد المسلمين والمسلمات، وهكذا الماسونية وما تفرع منها، والاختلاط وما ينتج عنه من البلاء.

المهم أنه قد لا يسلم من الفواحش إلا **النَّزْر** اليسير، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الكَلَامُ، وَاليَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا البَطْشُ، وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الخُطَى، وَالأُذُنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الاسْتِمَاعُ، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ وَيُكَذِّبُهُ» [رواه مسلم برقم (٢٦٥٧)].

فعلى الإنسان أن يدعو لنفسه ولغيره، انظر إلى لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لم يكتف بأن بناته على خير عظيم من الإيمان وهو نبي كريم، ومع ذلك يقول: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٦٩]. أنت لا تملك قلبك ولا تضمن غيرك، فالجأ إلى ربك.

وقد قال إبراهيم: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم:٣٥]. والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكُفْرِ وَالفقْرِ وَالنِّفَاقِ وَالشِّرْكِ» [رواه أبو داود برقم (١٥٤٨)، والنسائي برقم (٥٤٨٤)].

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ١٧١﴾ [الشعراء:١٧٠ – ١٧١] أي وقعت في العذاب الأليم؟ ليس أنها وقعت في الفاحشة. قال ابن عباس: "ما زنت امرأة نبي قط". وقول الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم:١٠] المراد به خيانة الدين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ١٧٢ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ١٧٣ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٧٥﴾ [الشعراء:١٧٢ – ١٧٥] العزيز الذي لا يُغلب، والرحيم بعباده المؤمنين.

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل:٥٤ – ٥٥] ليس المراد جهل العلم وإنما الجهل السفه، الجهل هنا السفه. أما الجاهل الذي لا يعلم، هذا يعلم.

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦﴾ [النمل:٥٦] تقلب المفاهيم والحقائق، يعني صار لوط عندهم هو المذموم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [النمل:٥٧] الهالكين ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨﴾ [النمل:٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٨ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟

﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت:٢٨ - ٢٩] وهذا هو ديدن الكافرين، يستعجلون العذاب.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٠] فاستجاب الله له.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ [العنكبوت:٣١] جاءته بشرى الولد ﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ﴾ [العنكبوت:٣١ - ٣٣] خوفًا عليهم من فتنة قومه ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا﴾ [العنكبوت:٣٣ - ٣٤] عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت:٣٤ - ٣٥] يعني تركها قاعًا صفصفًا، ويذكرون أنها البحر الميت، لا يصلح حتى لحياة الأسماك.

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٣ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ١٣٤ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ١٣٥ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ١٣٦ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات:١٣٣ - ١٣٨] يعني على طريقهم، على قراهم.

وقال تعالى في سورة الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارته إياهم بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ [الذاريات:٣١ - ٣٢] هو لا يعلم أنهم مرسلون إلا بعد أن أبوا أن يأكلوا من العجل ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات:٣٣ - ٣٤] معلمة ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ [الذاريات:٣٤] الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والشركيات.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٣٥] وهم قوم لوط، لوط وبناته ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦].

قال شيخ الإسلام: "لما كان الذين نجوا من العذاب أهل الإيمان قال الله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولما كان بيت لوط يدخل فيه زوجة لوط وكانت منافقة قال الله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾"كانت تظهر الإسلام وتبطن الكفر.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣٧].

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ٣٤﴾ [القمر:٣٣ - ٣٤] أي خرجوا في السحر من تلك القرية ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ٣٨ فَذُوقُوا۟ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ٤٠﴾ [القمر:٣٥ - ٤٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لَأَجَبْتُهُ» [رواه البخاري برقم (٣٣٧٢)، ومسلم برقم (٢٣٧٥)].

مما يذكر أن عبد الملك بن مروان يقول: "والله لولا أن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر أن رجلًا يأتي رجلًا ما صدقت هذا الأمر، لأن هذا أمر مستقبح عند العقلاء، مستقبح ومستبعد، لكن من ذهبت فطرته وتنكس وقل حياؤه وتغير شأنه لا يبالي".

تمت قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ

قصة نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ

هو إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، ولده من هاجر، الذبيح، جد نبينا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد شارك أباه في بناء البيت العتيق.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم:٥٤ - ٥٥].

هذا وصف عظيم لهذا الرسول الكريم: كان صادق الوعد، إذا وعد لا يخلف، وكان مع ذلك رسولًا من الله ونبيًا من الله، وكان من شأنه أنه يأمر أهله بالصلاة أي المفروضة والزكاة المكتوبة، وكان عند ربه مرضيًا في جميع عمله، إذ أن الله عَزَّوَجَلَّ يرضى الإيمان ويبغض الكفر والمعاصي والطغيان.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥ - ٤٧].

الشاهد أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر إبراهيم وذريته الذين أخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ بالتوحيد.

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٥ - ٨٦].

فوصف إسماعيل بالصلاح وبالصبر.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ [النساء:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ [البقرة:١٣٦].

ونظيرتها من السور الأخرى: قال تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة:١٤٠].

وقد تقدم في قصة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن إسماعيل هو الذبيح، وأنه لما بلغ السعي مع أبيه رأى رؤيا أنه يذبحه، فقدم إليه وأخبره الخبر قال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢]، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وضعه على جبينه حتى لا يرى السكين وهو يحدها ﴿وَنَـٰدَيۡنَٰهُ أَن يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَـٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ ١٠٧﴾ [الصافات:١٠٤ – ١٠٧].

وعلمنا أن من قال بأن الذبيح إسحاق إنما وافق ما نقل عن أهل الكتاب الذين أرادوا نزع الفضيلة من محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ومما يكون إلى محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وجعل الفضيلة في إسحاق والد إسرائيل ومن إليهم، وهذا لشدة حسدهم وبغضهم لأهل الإسلام. لا يريدون أن يبقى للمسلمين فضيلة سواء في زمنهم أو قبل زمنهم.

وادعوا مع ما هم فيه من البطلان أن إبراهيم كان منهم، مع أن إبراهيم لم يكن منهم بإجماع العقلاء: ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ﴾ [آل عمران:٦٧ – ٦٨].

فهم أولى الناس بإبراهيم، تابعوه وأخذوا بطريقته.

ولا يبتئس أهل الإسلام مهما فعل الكفار من البغي والإجرام. هذه الأيام قام بعض النصارى في السويد بامتهان المصحف الشريف، وهذا الصنيع منهم ليس بمستغرب وليس ببعيد، فهم يكذبون محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يشركون بالله ويندون، وهم يعاقرون كل بلية، فلا يستغرب إذا امتهنوا القرآن أو سبوا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

لكن هذا من علامات فشلهم وخزيهم وبوارهم، وسيمكن الله عَزَّوَجَلَّ منهم، فإن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المرء ما حرم الله، يغار أن تنتهك محارمه، يغار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن يفعل مثل هذه الأفعال القبيحة الصادرة عن بغض شديد من أهل الإجرام وعباد الصلبان لأهل الإسلام.

ولكن من الذي يفهم إلا من بصره الله؟ وإلا تجد كثيرًا من المسلمين يسارعون إلى أخذ جنسياتهم، يسارعون إلى السفر إلى بلدانهم، يسارعون إلى الرضا عن أفعالهم وأقوالهم، يسارعون في الدفاع عنهم: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢].

أين أنتم يا أهل الإسلام من بعدكم عن اليهود والنصارى تقليدًا ومحبة وميولًا واعتذارًا؟ يجب عليكم أن تبغضوهم كما أبغضوكم: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة:١٢٠].

وأنت ترى أنهم يتتابعون على سب الإسلام وعلى سب نبي الإسلام وعلى امتهان القرآن، تارة من رؤسائهم وتارة من مرؤوسيهم وتارة من صحفهم، ولا نكير منهم، دليل على إقرارهم لهذا الباطل العظيم وهذا المنكر الفظيع.

فلماذا إذن يختلف المسلمون في شأنهم؟ لماذا يميل المسلمون إليهم؟ بل الواجب أن نبغضهم وأن نحذر منهم، ولو كان لأولياء الأمور استطاعة وجب القود في مثل هؤلاء الفجرة الكفرة.

ومن أدرى هؤلاء بحرية الرأي والرأي الآخر وإلى حرية التعبير؟ إذا كانت المسألة تتعلق بالمسلمين، إذا كانت المسألة تتعلق بنبي المسلمين، إذا كانت المسألة تتعلق بكتاب المسلمين. أما إذا قام المتكلم يتكلم في أصحابهم وإذا بهم يغضبون.

لما وقعت المظاهرات في البلاد الإسلامية نموها ونشروها وعظموها واحتفوا بها وقالوا: حرية. ولما وقعت المظاهرات في فرنسا من أصحاب السترات الصفر ضربوهم وسجنوهم وقتلوهم وفعلوا بهم الأفعال الكثيرة.

لما ضربت أمريكا أفغانستان والعراق وضربت روسيا سوريا، وضرب الناتو ليبيا كانت هذه أفعالًا مشروعة عندهم ترضاها الأمم المتحدة وتصفق لها، فلما ضربت أكرانيا من روسيا وإذا بهم يتباكون على حقوق الإنسان، وعلى النظام الدولي وعلى كثير من الأمور، فكيلهم بمكيالين هو من أسباب النكسة لهم بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

فالشاهد من هذا: أنهم يبغضون كل خير لهذه الأمة، وستجد منهم ما يؤدي إلى إساءة أهل الإسلام، لكن علينا أن نعتز بديننا.

وحتى أنه يحصل منهم الإساءة والأذى لله عَزَّوَجَلَّ يقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ، يَجْعَلُونَ لَهُ الصَّاحِبَةَ وَالْوَلَدَ، ثُمَّ هُوَ يَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ»** [رواه البخاري برقم (٧٣٧٨)، ومسلم برقم (٢٨٠٤)].

وأنت توقع من الكافر كل شيء، ليس بعد الكفر ذنب، كفرهم يجرهم إلى كل ذنب وكل رذيلة، والله المستعان.

وفي البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا**» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)]. قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «**لَا تَخَافِي الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَاهُنَا بَيْتَ اللهِ يَبْنِيهِ هَذَا الْغُلَامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَهْلَهُ**» [رواه البخاري برقم (٣٣٦٤)].

وقد تقدم في قصة إبراهيم أنه تزوج من جرهم الأولى وأمره أبوه أن يطلقها، والثانية وأمره أبوه أن يبقيها.

وأما ما جاء أنه قُبر في الحِجر فهذا قول غير صحيح، ما كان للكعبة أن تكون مقبرة، والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد نهى أن يُجلس على القبور أو يُصلى إليها، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد.

فهذا القول الذي يقوله كثير من المفسرين والأخباريين من أن نوحًا وهكذا هودًا وهكذا إسماعيل دُفنوا في الحِجر قول باطل لا دليل عليه، وتخالفه الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية في منع اتخاذ القبور مساجد، والله المستعان.

ثم لم يكن من إسماعيل أي نبي إلا ما كان من محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكفى بها مكرمة أن يكون محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من نسله، وهو سيد البشرية وأزكاها وأفضلها وخيرها، والله المستعان وعليه التكلان، والحمد لله رب العالمين.

تمت قصة نبي إسماعيل عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله إسحاق بن إبراهيم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ

قال تعالى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ١١٣﴾ [الصافات:١١٢ – ١١٣].

محسن: موحد، والظالم: مشرك.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣﴾ [هود:٦٩ – ٧٣].

وهذه البشارة بالولد بإسحاق وفيها أن الله لا يعجزه شيء، امرأة في آخر عمرها تحمل وتلد، فالعمر إلى الله. فلا تيأس من روحه، طال الزمن أو قصر الزمن، قوية الأسباب أم ضعفت الأسباب. إنما على الإنسان أن يأتي بالسبب مع استعانته بالله. "استعن بالله ولا تعجز".

وهذه هي الآيات التي نستفيدها من مثل هذا القصص: نرى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، إعزاز الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين، إذلال الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين. نرى ونعلم أن الله لا يعجزه شيء، وأن الأمر أمره. خلق عيسى من غير أب، خلق آدم من غير أب ولا أم، لا يعجزه شيء.

وقال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥١ - ٥٦].

لا يقنط أحد من روح الله ورحمته.

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦﴾ [الذاريات:٢٤ - ٢٦].

قالوا: أول من ضاف إبراهيم، فسنة الضيافة سنة إبراهيمية. والسنة في الضيف أن تقرب إليه الطعام. قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧﴾ [الذاريات:٢٦ - ٢٧].

فيه جواز الزيادة في المطعوم، فهم كانوا عددًا يسيرًا ومع ذلك ذبح لهم عجلًا سمينًا إكرامًا لهم. فلا بأس من بعض التكلف لإكرام الضيف، وما زاد من الأطعمة واللحوم ونحو ذلك يُعطى للجيران وللمساكين والفقراء، لا يُبذَّر به.

والتخلق بخلق الضيافة من الأهمية بمكان، إذ أن الإنسان يستبشر بالضيف ويفرح به ويأنس به ويبش في وجهه: "مرحبًا وأهلًا، حياكم الله، على العين وعلى الرأس، جاءنا السرور". ما يكون عابسًا في وجوههم.

النبي ﷺ قال لوفد عبد قيس: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى» [رواه مسلم برقم (١٧)]. وكان يأمر لهم بما تيسر من التحفة ونحوها.

حتى أهل الجنة حين يدخلون الجنة يضيفون بزيادة كبد النون، وينحر لهم ثور الجنة الذي رتع في أطرافها.

ومن أوصاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العظيمة: "إنك لتقري الضيف". وكان العرب يتبارون في إقراء الضيف، حتى ذاع صيت حاتم الطائي بين الناس لإكرامه للضيف، وربما ذبح لضيفه ناقته التي يركبها، وربما ذبح شاته التي يشرب لبنها.

ومما يذكر في ترجمة عبيد الله بن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه مر برجل أعرابي، فلما رآه الأعرابي في هيئة حسنة وشارة طيبة دخل لزوجته وقال: لقد رأيت رجلًا كأنه من سادات العرب، فهل عندك من شيء لنطعمه؟ قالت: ما عندي إلا هذه الشاة. قال: هات المدية (السكين). قالت: وماذا تفعل بابنتك؟ تقتل ابنتك؟ ما معه إلا هذا الحليب الذي يخرج من هذه الشاة. فقام يرتجز وهو يقول:

أَيَا جَارَتِي لَا تَعْذِلِي وَاسْتَقِينِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ دَيْنِي

وتأخذ الشفرة من يديه، فذبح له وعشاه بها وليس له إلا هي.

فلما أصبح عبيد الله بن العباس وهو مشهور من كرماء العرب والمسلمين قال لخادمه: هل معك من شيء فضل عن نفقتنا؟ قال: نعم، خمسمائة دينار. قال: أعطه إياها. قال: يا سيدي، إنما أطعمك شاة قيمتها خمس دراهم وتعطيه خمسمائة دينار؟ قال: هو أكرم منا، قد ذبح لنا شاته التي لا يملك غيرها، وأما نحن فنملك غيرها. وتعجب من كرم هذا الأعرابي.

الشاهد: أن إكرام الضيف صفة حميدة، نوصي بها الأبناء، نوصي بها الطلاب. بل إني وجدت وصية مكتوبة للشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي أبناءه بإكرام الضيف. ولما نزلت إلى مصر جاء ولده وضيفني وأكرمني وأراني تلك الوصية.

فنحن نوصي الأبناء ونوصي الإخوان ونوصي الطلاب ونوصي من استطعنا بإكرام الضيف والبشاشة في وجهه وإدخال السرور عليه ولو بما تيسر. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، بما تيسر.

فالعناية العناية بالضيوف، لأن العناية بهم يعني: أولًا امتثال لشرع الله، ثانيًا من باب الدعوة إلى الله، ثالثًا من باب الإحسان والمعروف، لأن الضيف قد يكون ابن سبيل منقطع يحتاج إلى من يأويه ومن يسكنه ومن يطعمه.

والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «لَيْلَةُ الضَّيْفِ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ» [رواه أحمد برقم (١٠٣٨٠)، وأبو داود برقم (٥١٤٠)]. وتأسوا بنبيكم إبراهيم، بنبيكم إبراهيم الخليل، خمسة ممن نزلوا به يذبح عجلًا سمينًا ويخدمهم وهو خليل الرحمن سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾ [الذاريات:٢٧ – ٣٠].

❁ ذكر بناء البيت العتيق:

بناه إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع ولده إسماعيل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦].

رواه، وعدّه، وأظهره، وعلّمه له، وأذن للناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾ [الحج:٢٧].

وذلك أن إبراهيم لما انتهى من بناء البيت، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج. قال: يا رب وكيف أسمعهم الصوت؟ فأمره الله أن يؤذن. والله عَزَّوَجَلَّ صوّته على كل ضامر، أي بعير الضمرة لشدة الأسفار، يأتين من كل فج عميق، يعني يأتي الناس يركبون عليها من البلاد البعيدة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران:٩٦ – ٩٧].

فُسِّرَ بالمقام الذي ركع عليه إبراهيم لبناء البيت، الحجر المعروف بمقام إبراهيم، وفُسِّرَ بأنه مقامات إبراهيم جميعًا من مزدلفة وعرفات. ومن دخله على الحرم كان آمنًا، يعني شرعًا، أما قدرًا فقد لا يأمن.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤] الأوامر والنواهي، فالتزم المأمور وترك المحظور. قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:١٢٤]. قال له الله: إني جاعلك للناس إمامًا. قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة:١٢٤] قال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٢٤]. معناه أن من لم يكن ظالمًا له هذا العهد. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:١٢٥] مثابة يصبون إليه ويأتون. ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] أي بعد الطواف. وهذه الآية كان في سبب نزولها أن عمر هو الذي قال: يا رسول الله، واتخذ من مقام إبراهيم مصلى. ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥].

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة:١٢٦]. هذا قول إبراهيم دعاء للمؤمنين. فقال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:١٢٦]. حتى من كان من الكافرين قد سكن الحرم، الله عَزَّوَجَلَّ ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير يوم القيامة.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧] كلاهما يرفع، أحدهما يضع الحجرة على البناء، وقبل ذلك إسماعيل يأخذ الحجر من الأرض. ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة:١٢٧ – ١٢٩].

عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَمْ تَرَيْ أَنَّ قَوْمَكِ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟» قالت: فقلت: يا رسول الله، أفلا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» [رواه البخاري برقم (١٥٨٤)، ومسلم برقم (١٣٣٣)].

قال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما أرى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم، لأن الاستلام للركن اليماني والحجر الأسود، وبقية الأركان لا تستلم لأنها ليست على القواعد. ثم بنى الكعبة

على بناء إبراهيم عبد الله بن الزبير، لكن ردها عبد الملك بن مروان على البناء الأول، ثم أفتى العلماء بعدم التعرض للكعبة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران:٦٥ - ٦٦]. لأن اليهود زعموا أن إبراهيم منهم، والنصارى زعمت أن إبراهيم منهم.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٨﴾ [آل عمران:٦٧ - ٦٨].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي

ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة:١٣٠-١٤١].

وقال البخاري عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت، ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام، فقال: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، وَاللهِ إِنِ اسْتَقْسَمَا بِالْأَزْلَامِ قَطُّ» [رواه البخاري برقم (١٦٠١)] لم يخرجه مسلم يعني والله ما استقسم بالأزلام، لأن الاستقسام بالأزلام صنيع الكافرين لا صنيع المؤمنين الموحدين.

وفي لفظ البخاري: «قَاتَلَهُمُ اللهُ، لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ شَيْخَنَا لَمْ يَسْتَقْسِمْ بِهَا قَطُّ» [رواه البخاري برقم (١٦٠١)].

وهو موصوف بالخلة عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. قال الله: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:١٢٥]. والخلة محبة، حتى قال بعضهم:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي   وَبِذَا سُمِّيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا» [رواه مسلم برقم (٥٣٢)]. وقال أيضًا في آخر خطبة خطبها: «أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا

مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ» [رواه البخاري برقم (٣٦٨٤)، ومسلم برقم (٢٣٨٢)] من حديث أبي سعيد.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ». فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ». قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا» [رواه البخاري برقم (٣٤٩٠)، ومسلم برقم (٢٣٧٨)].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عُرَاةً غُرْلًا مُحَجَّلِينَ، فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٖ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. [رواه البخاري برقم (٣٣٥٠)، ومسلم برقم (٢٨٦٠)].

❁ ذكر صفة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ :

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «عُرِضَ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ، فَإِذَا مُوسَى ضَرْبٌ مِنَ الرِّجَالِ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ فَإِذَا أَقْرَبُ مَنْ رَأَيْتُ بِهِ شَبَهًا دِحْيَةُ» [تفرد به الإمام أحمد: رواه أحمد برقم (١٤٧١٣)].

والصحيح أنه أقرب الناس شبهًا به صاحبهم، يعني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٨)، ومسلم برقم (١٦٧)]. قالوا له: فإبراهيم؟ قال: «انْظُرُوا

إِلَى صَاحِبِكُمْ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٨)] يعني نفسه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشبه جده الأعلى إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أشبهه في كثير من شأنه الخلق والخلق.

تمت قصة نبي الله إسحاق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ﴾ [الأنعام:٨٤] إسحاق الابن ويعقوب الحفيد.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم:٤٩].

ويعقوب هو إسرائيل، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران:٩٣]. وأنبياء بني إسرائيل من نسله جميعهم يرجعون إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء:٧٢] يعني وهب له إسحاق ابنًا وزاده يعقوب حفيدًا.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣] بيت نبوة وصلاح.

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٥ - ٤٧].

معنى ذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ جعلهم يذكرون. ولذلك في كثير من المواطن يقول الله

لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ويقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [رواه البخاري برقم (٦٠١٨)، ومسلم برقم (٤٧)]. لأن من آمن بالآخرة جره ذلك إلى العمل لها، إلى الاستعداد لما فيها. لأن الناس في الآخرة ما هناك شيء اسمه وسط، هناك فريق في الجنة وفريق في السعير. وفي الحديث: «فَرَّقَ اللهُ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقًا فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقًا فِي السَّعِيرِ» [رواه مسلم برقم (٢٧٨٧)]. نسأل الله السلامة والعافية. فانظر كيف يمتن الله عَزَّوَجَلَّ على هؤلاء الأنبياء بذكر الآخرة: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص:٤٦ - ٤٧]. كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران:٣٣]. وأكثر ما يوقع الناس في الفتن عدم ذكر الآخرة. أما إذا استشعر الإنسان العقوبة على الذنب سيرتدع؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩]. حياة من حيث أنه يردعهم عن القتل، ويقولون: القتل أنفى للقتل. كيف هذا؟ القتل أنفى للقتل لأن القاتل إذا قتل زجر الآخر الذي يوسوس في نفسه بالقتل. فاجعل الآخرة نصب عينيك دائمًا وأبدًا. أنت الآن غريب تفكر في عودتك إلى بلدك وتقول: سأرجع يا إما جنة يا إما نار.

وفي وصيته يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة:١٣٣ - ١٣٤].

وصايا بالتوحيد، وصايا بالاتباع. هكذا هو الأب الناجح، هو الذي يوصي أولاده بطاعة الله ويهتم لشأنهم مع الله. أما بعض الآباء يوصي ولده إن أوصاه: انتبه لمسألة كذا، كن رجلًا في موضوع كذا، كلها أمور دنيا. أما هذا أوصاهم بالتوحيد الذي به صلاح الدنيا والآخرة.

وهكذا وصايا الأنبياء كوصية نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يوصيهم بالصلاة، بممالكة الإيمان، يحذرهم من التشبه باليهود والنصارى واتخاذ القبور مساجد. وهكذا شأن المستقيم يوصي بالطاعة ويحث على الطاعة. لا سيما مثل هذا الموطن وأنت ستفارق الروح الجسد. هكذا يكون شأن الأب مع أبنائه. وربما تؤثر هذه الكلمات في الأبناء لا سيما عند حشرجة الصدور وتشنج الأصابع.

والابن يرى هذه الموعظة ويرى أباه ينصحه: يا ابني والله الدنيا هذه قد جريت وراها جريًا وما نفعتني، أنا الآن سأفارق فأوصيكم بالدعاء وأوصيكم بإجراء الصدقات الجاريات إن استطعتم.

وهكذا المؤمن الموفق. أما بعضهم إذا جاء عند الموت جار في الوصية، جار في الوصية وحاف في الوصية ومال في الوصية.

وعن عائشة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ**» [رواه البخاري برقم (٢٦٦١)، ومسلم برقم (٢٧٧٠)].

قالت: إني والله لا أجد مثلًا إلا أبا يوسف، فـ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف:١٨]. وأنزل الله: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ**﴾ [النور:١١] العشر

الآيات. متفق عليه، هذا لفظ البخاري. وسيأتي شيء من بيان صبره وحسن ثقته بالله عَزَّوَجَلَّ في قصة يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

فقد ابتلي في محبوبه حيث غيبه إخوانه وبقي في دهره يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، ولحقه ما لحقه على ما يأتي بإذن الله عَزَّوَجَلَّ في قصة يوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

تمت قصة نبي الله يعقوب عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

الكريم يوسف ابن الكريم يعقوب ابن الكريم إسحاق ابن الخليل إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ». قالوا: ليس عن هذا نسأل. قال: «فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللهِ ابْنُ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ ابْنِ خَلِيلِ اللهِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٩٠)، ومسلم برقم (٢٣٧٨)].

وقد أنزل الله في قصته سورة خاصة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف:١-٥]. فيه عظيم شأن الرؤيا الصالحة الصادقة.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [يوسف:٦]. الجد أب ويعتبر محرم لزوجة ابنه الحفيد، لأن بعضهم قد يجهل مثل هذا الحكم.

﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٨ ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ [يوسف:٨ - ٩]. هذا من الشيطان يزين المعصية للإنسان حتى إذا وقع فيها رأى شؤمها.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [يوسف:١٠]. هذا من فرج الله، كيف سخر له هذا الأخ يعني في تخفيف الحكم ما هو في رفعه. قد رأى تمالؤهم عليه وهو من المتمالئين إلا أنه دونهم، وإلا لو قال لهم: يا إخوتي اتركوه، ما شأنكم، لا تحزنوا أباكم وهذا أخوكم، وكل له رزقه وحظوته وشأنه. لكن أتاهم بهذا الأمر وفيه خير، لو قتلوه لانتهى شأنه، لكن أخذوا بشور هذا وألقوه في غيابة الجب.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ [يوسف:١١]. هذا بدء المكر وبدء الحصول على يوسف.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:١٢] يعني يرعى معنا الغنم ويلعب بين الغنم.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف:١٣]. قال العلماء: بقوله هذه فتح لهم يعني ما يتشبثون به، وجدوا العذر ربما هم يفكرون بماذا يعتذرون لأبيهم، فلما سمعوا منه "أخاف أن يأكله الذئب" رجعوا إلى أبيهم وقالوا: أكله الذئب، ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جماعة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف:١٥]. أوحى الله إلى يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف:١٦] بعد عمل جريمتهم.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]. ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾

[يوسف:١٨]. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:١٨]. الأب لا يغلب من مثل أبنائه، يعني ربما لو قام عليك آخر تقوم عليه تصيح تضارب، لكن الأبناء إذا كانوا عاقين وأحاطوا بأبيهم ربما أذاقوه القهر والهم والغم وربما أصيب بالجلطة بسببهم. فما أحسن من الابن البار بأبيه. فانظر إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ غيب ولده وأحب أولاده إليه وما كان منه إلا أن استرجع، لم يحاكمهم، لم يضاربهم، لم يفعل شيئًا.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ﴾ [يوسف:١٩] يعني رفقة يسافرون في عدة أبعرة يسمى سيارة. فأدلى دلوه لرفع الماء ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ [يوسف:١٩] ليس ينادي رجل يقال له بشرى، إنما يقول لهم: يا بشراكم وجدت غلامًا. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف:١٩] قيل بأن الذي أسره إخوانه باعوه. ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف:٢٠] أي باعه إخوانه وكانوا فيه من الزاهدين، أهم شيء تخلصوا منه، وهددوه فيما يذكر أهل التفسير قالوا له: إذا قلت أنك أخونا سنقتلك، يعني ما بقي معك إلا أن ترضى أنك عبد فرضي وصبر.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف:٢١] انظروا كيف جعله محبوبًا عند هؤلاء وكيف جعله الله عَزَّوَجَلَّ ينتقل من عيشة البادية إلى عيشة الملوك وإلى القصور الرفيعة الواسعة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١]. والله غالب على أمره أي أن أمر الله لا يرده

راد. والله يا إخوة أنها آية وعظة. والله غالب على أمره مهما كان يتربص المتربص، يمكر الماكر يكيد الكائد، يكثر الأعداء. الله غالب على أمره لا يكون إلا ما قضاه وقدره وأراده.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢] قيل النبوة والرسالة.

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف:٢٣] هذا من شأنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن امرأة راودته عن نفسه وهذا من أشد البلاء، الغالب أن الرجل يراود المرأة وأن الرجل يتتبع المرأة، لكن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ راودته المرأة، وأي امرأة إنها سيدته وزوجة الملك العزيز وفي قصر قد أعدت العدة لعدم وجود أحد سواهما، هيأت له جميع أسباب المواقعة ولكن الله حفظه ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ﴾ [يوسف:٢٣] يعني غلقت الأبواب حتى تأمن من الداخلين. وقالت: هيت لك، يعني قم إلى حاجتك. ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف:٢٣]. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف:٢٤] أي أن يواقعها وهم بها لكن همه كان عابرًا فلا يؤخذ به. بعضهم قال: هم بضربها، هذا كلام ما عليه دليل، ولكن ظاهر الآية أنه هم بها، لكن خاطرة المؤمن قد يهم بالشيء من الباطل ولا يأتيه ولا يستقر في قلبه فلا مطعن في يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذا، بل له حسنة إذا هم بالسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة كاملة. فإنما تركها من جرائه لولا أرى برهان ربه. قيل رأى أباه، قيل رأى طفلًا، قيل كذا أشياء لا دليل عليها. المهم أن الله أراه برهانًا يعني عصمه به من إتيان هذا الأمر.

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف:٢٥] هو يريد الفرار وهي تريد المنع من الفرار ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف:٢٥] قطعته ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ﴾ [يوسف:٢٥] وجدت زوجها عند الباب. قالت مبادرة للتهمة حتى تدفع عن نفسها الشبهة: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف:٢٥] يعني اتهمته وحكمت عليه.

﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ [يوسف:٢٦] يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يقول: هي راودتني عن نفسي.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف:٢٦] يعني رد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: هي التي راودتني عن نفسي لست أنا. عند ذلك وقعت بينهم محاكمة. ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٧﴾ [يوسف:٢٦ - ٢٧] معناه أنه قدم إليها فنازعته حتى قطعت قميصه، ومعناها أنه هارب وهي التي أدركته.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨].

يذكرون: أن رجلًا في عهد بعض الملوك جمع كتابًا بكيد النساء وذهب من ها هنا وهاهنا يجمع القصص، المهم قالت له زوجة ذلك الخليفة: لا تنشر هذا الكتاب. قال: قد اطلعت على كيد النساء وسأفضح النساء. فقالت لزوجها: أتسمح لي أن أبقى معه قليلًا في مسألة؟ فقال لها: شأنك. فلما دخل عليها قالت له: قم لقضاء حاجتك. يصيح ماذا كذا. قالت: قم. فلما أراد أن يقوم صاحت

صيحة فدخلوا عليها وأصيب بالإغماء، فقام بعد ذلك خائفًا وجلًا أن تقول للملك أرادني فيقتله. فقال لها: ما شأنك وصاحبي؟ قالت: أغمي عليه ففزعت، ثم قالت له: هل كتبت هذا في كتابك؟ قال: ما كتبتها ولا سأنشر الكتاب. وقام بإحراقه وإزاحته.

فالشاهد: أن كيد النساء عظيم إلا أن تكون ممن وهبها الله عَزَّوَجَلَّ الإيمان والطاعة، وإلا ربما تكيد بين الأب وبين ابنه وبين الأخ وأخيه. فكم لهن من غوائل، كم لهن من غوائل. وربما بكت وهي الظالمة.

﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يوسف:٢٩].

قالوا: هذا لدياثته، غاية ما فيه أنه قال: استغفري لذنبك، ما نهرها ولا زجرها ولا قام عليها.

﴿۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ [يوسف:٣٠].

انتشر الخبر وذاع مع أنه كان بين اثنين، والسبب في ذلك كل سر جاوز الاثنين شاع. فهذا هو لا تقل: أنا أعطي سري في بئر. أنت حين تتكلم بسرك أنت تظهره. قال بعضهم: حتى المثل هذا فيه كلام. السر الذي في البئر، البئر تكسر فيه الدلاء وكل دلو يطلع شوية وإذا بالسر يظهر.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف:٣١].

عيرنها به فلما رأينه عذرنها، فهذا لا يليق العذر بالباطل.

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢].

اعترفت لكن فيما بينها وبين النساء.

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣ - ٣٤].

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف:٣٥].

يعني أرادوا أن يغيبوا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أجل القصة التي أشيعت في المدينة عن امرأة العزيز تنسى وتغيب. ولله عَزَّوَجَلَّ حكمة سيأتي معنا أن هذا السجن كان من أسباب وصول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى أن يكون عزيز مصر وأن يكون ملك مصر. فبشدة يأتي الفرج، اشتدي أزمة تنفرجي. ويقولون: من ظلمة الأصداف تخرج الدرة، وباشتداد ظلمة الليل ينفجر الصبح.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٣٦].

وكان من شأنهم فيما يذكر أهل التفسير أنهم تآمروا على وضع السم للملك ثم فشى الأمر إلى الملك، فأمر الساقي أن يشرب ماءه فشرب وكان قد تخلف عن وضع السم فتركه كما سيأتي بعد سجن، وأمر الخباز أن يأكل من خبزه هذا فكان من شأنه ما يأتي من أنه صلب.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٧ - ٣٩].

بدأ بدعوتهم إلى التوحيد قبل تفسير رؤيا لهم.

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًاۖ وَأَمَّا ٱلْأٓخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٠-٤٢].

قال: فأنساه الشيطان. قالوا: فأنساه الشيطان ذكر ربه، هل هو عائد إلى هذا المسجون أو عائد إلى يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؟ من المفسرين من قال على يوسف، كان ينزل حاجته بالله فلما أنزلها بهذا المخلوق عاقبه الله عَزَّوَجَلَّ بأن سجن سبع سنين على ما يقول أهل التفسير.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف:٤٣-٤٤] تخليط لا حقيقة له.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف:٤٥]

يعني ذكر أنه رأى رؤية فسرها له يوسف.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٦].

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف:٤٧] يعني هذا السبع البقرات السمان البقرة تفسر بالسنة الخصبة.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف:٤٨]. وسبحان الله جعل الله لهم هذه الرؤيا من أجل تدبير شأنهم، وإلا كثير من الناس إذا فتح الله عليه ويسر وبذل فإذا عثر عليه لا يستطيع أن يفعل شيئًا.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:٤٩] يعني يقع الخير ويرجعون إلى عصر الفواكه ونحو ذلك مما يأكلونه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ﴾ [يوسف:٥٠] ملك مصر. فلما جاءه الرسول قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف:٥٠]. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ لُبْثِ يُوسُفَ لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ» [رواه مسلم برقم (٢٣٧٥)]، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد أن يظهر براءته.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥٠-٥٢].

قالوا: هذا القول عائد إلى امرأة العزيز تقول: ليعلم العزيز أني لم أخنه. وقيل: عائد على يوسف وهو الأظهر: ذلك ليعلم الملك والعزيز أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:٥٣]. وقعت له ذلك الخاطرة والهم فصرف الله عنه.

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ [يوسف:٥٤]. ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥].

استدل بعض من لا يفقه في هذه الآية على جواز طلب الإمارة مطلقًا، مع أن النبي ﷺ يقول: «لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مَنْ سَأَلَهُ أَوْ طَلَبَهُ أَوْ حَرَصَ عَلَيْهِ» [رواه البخاري برقم (٦٩٢٣)، ومسلم برقم (١٨٢٥)]. إلا أنه ليس كما زعم، وإنما يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأى أنه العالم بهذا الشأن والقائم به على وجهه، فلذلك عرض نفسه حتى لا يضيع الحق.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف:٥٦ – ٥٧]. يعني انظر مكروا به فأرادوا قتله، ثم مكر به فسجن، ثم خرج من السجن عزيزًا وواليًا عليهم متصرفًا في أرزاقهم.

﴿وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف:٥٨]. لأنهم وضعوه في البئر وهو صغير السن، وكان من سكان البادية، ثم صار إلى بيت الملوك، ثم صار من وزراء الملوك. ومعلوم أن الإنسان يتغير في صورته، في هيئته، في كلامه. ولما جهزهم بجهازهم، يعني هو عرفهم، ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ [يوسف:٥٩]. أكرمهم وضيفهم وكأنهم لم يسيئوا إليه. وهذه صفة ما أحوج الناس إلى أن يتحلوا بها بعضهم. إذا أخطأت عليه بكلمة ما يمكن يسامحك الدهر، كيف لو وقعت في

ضربه؟ كيف لو وقعت في قتله؟ ما يقبل العفو ولا الصفح ولا التجاوز. طبيعة الإنسان يخطئ وطبيعته يقصر، ولولا أن الله عَزَّوَجَلَّ هيأ لنا مثل هذه الأمور لضاقت الدنيا. ربما لا يستقيم حالك مع زوجتك تختلف معها، تختلف مع ولدك. إذا كان الشأن على عدم الاتفاق والإتلاف، كم سيبقى قلبك ضيقًا وقلب الآخر ضيقًا؟ فلابد أن الإنسان يروض نفسه على التحمل، على التجاوز، على الصفح. كان السلف رضوان الله عليهم ربما يؤدون أعراضهم لله ويتنازلون عن أشيائهم لله. أهم شيء عندهم الدين.

أخطأت على الدين أو في الدين نصحوك وقوموك. أما أخطأت عليهم فالشأن الصبر أو العفو والصفح وهو أكمل، أو إذا كان ولابد تطالب بحقك وتنتصف. أنت وخصمك ما تبقى أنت وهو على المهاجرة والمنابذة والمخاصمة. هذه مفرحات الشيطان ومغضبات الرحمن. والله ربما بينك وبين أخيك خلاف من أجل كلمة، من أجل حتى مضاربة، من أجل مال، من أجل شيء، وأعمالكم لا ترفع إلى الله، لا ترفع. لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: «انْظُرَا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا» [رواه مسلم برقم (٢٦٩٩)].

وإن تؤخر قبول عملك، تؤخر رفع عملك من أجل خلاف شخصي، أو خلاف من أجل شيء قد وقع الخطأ لا يسلم منه أحد. هذا درس عظيم من هذا النبي الكريم، دخل إخوته بعد أن مكروا به، ترصدوا لقتله بل قتلوه لولا أن الله سلمه، ومع ذلك لم يزد على إكرامهم وحسن ضيافتهم والإحسان إليهم. وسيأتي في آخر القصة ما يدل على أعظم من هذا: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢]. يعني ما جعل لنفسه حظًا في القضية حتى ما قال

أنتم فعلتم أو عاتبهم. ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ دفن الماضي أجمع، ودعا الله أن يغفر لهم أيضًا ويتجاوز ويعفو عنهم ويصفح. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠].

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف:٦٠] وهو أخوه من أبيه وأمه بنيامين.

﴿قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ [يوسف:٦١].

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لعبيده الذين يحملون الأمتعة -: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ أموالهم التي جاءوا بها واشتروا بها الحب ونحوه ﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يعني يرجعون مرة ثانية لأنهم رأوا الإكرام والإحسان.

فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف:٦٣] يعني في المرات القادمة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف:٦٣]. لأنهم قد علموا ما صنعوا بيوسف فأظهروا أنهم في هذه المرة سيحفظونه ويرعونه.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٦٤].

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف:٦٥] يعني رأوا ما اشتروا به الحب موجود بين البضاعة ففرحوا جدًا عندما تجد ما اشتريته ومالك قد رد إليك إكرامًا وإحسانًا.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف:٦٥] نذهب نأتي لهم بالميرة.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦]. انظر إلى هذا الفقه العظيم في هذا النبي الكريم. يعني ما شدد عليهم أنهم لابد أن يأتوا به مطلقًا، هناك أمور قاهرة. فلذلك قال: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾يعني يقع شيء فوق إرادتكم فأنتم معذورون ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف:٦٦].

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف:٦٧].

قال العلماء: بأنه أمرهم بهذا دفعًا للعين. وفعلًا العين حق. كم من بيت يكون كثير عدده، صحيحة أبدانهم، كثيرة أموالهم، حسنة حالهم، فإذا أصيبوا بالعين أو أصيبوا بالعين كثرت أمراضهم وذهبت أموالهم وربما لاحقهم ما لاحقهم. على الإنسان أن يكون محافظًا على أذكار الصباح وأذكار المساء وأذكار الدخول وأذكار الخروج، وعليه أن يفعل بعض الأسباب التي يتقي بها العين.

فمثلًا الأبناء الصغار كثير من الأمهات تكون سببًا في إصابتهم بالعين. تجمله وتزينه وتطيبه وتجهزه وتنقله من امرأة إلى امرأة، وعندما تراه تقول: أوه يا هذا الولد كأنه لمبة! والثانية تقول: هذا كأنه صورته صورة يوسف! والثالثة تعطيه هذه الكلمة، ما يرجع إلى البيت إلا وهو في حالة إسهال، في حالة حمى، وربما هلك وعطب. فلا بأس أن الإنسان يعني يتقي العين بأسباب شرعية وبأسباب قدرية. الأسباب الشرعية الأدعية والأذكار ونحو ذلك، والأسباب القدرية يفعل أشياء مثل هذا: لا تدخلوا من باب واحد. وهم أبناء نبي ويدخل من أبواب متفرقة.

لا تحفل أبنائك حولك عشرين واحد ولا خمسة عشر ولا عشرة وربما حتى في المأكولات يصور مأكولاته ومن هذه الأشياء ويصاب فيها. فالإنسان عليه أن يكون منتبهًا لنفسه محافظًا على طاعة ربه، وإذا حصلت عليه العين بادر بالرقية والأدعية، ومن علم أنه أعانه يبادر بالوضوء والاستغسال.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا لَهُ**» [رواه مسلم برقم (٢١٨٨)].

أثر عظيم ربما يقوم المعيون كأنه نشط من عقال. وهذا أمر مذكور في السنة وموجود في الواقع. وتجد أن مرض العين نسأل الله السلامة والعافية غير منضبط. تارة يشكو من جنبه، وتارة يشكو من رأسه، وتارة يشكو من ظهره، وتارة يتعلل بطنه، وربما ذهب إلى الطبيب ما يدري ما يعطيه من علاج، يعطيه فحص شامل، وتارة يقول عندك تيفود، وتارة حمى، وتارة حمى فيروسية. لأنه أصلًا ما ضبط القضية. وربما آلت العين في الأخير إلى مرض عضوي. قد يتحول المرض إلى سرطان أو قد تبتر اليد أو قد تبتر الرجل؟ يعني يتحول إلى مرض عضوي.

ومع ذلك هي كبقية الأمراض لها شفاء بإذن الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن بعضهم إذا قيل فيك عين خلاص كأنه يقدم إلى الإعدام. ما عاد يستطيع يذكر ربه ولا يدعوه ولا يرجوه خائف من العين. هذه العين من الأمراض، عليك أن تستخدم الرقية. اقرأ الفاتحة عدة مرات، اقرأ المعوذات فيها بركة عظيمة، اقرأ الأدعية. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟**» قال: «**نَعَمْ**». قال: «**بِسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ**» [رواه مسلم برقم (٢١٨٦)].

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى طفلة صغيرة قال: «إِنَّ بِهَا عَيْنًا فَاسْتَرْقُوا لَهَا» [رواه مسلم برقم (٢١٨٩)]. فهذا دفع لهذا السبب العظيم.

وهذه الآية أصل في اتقاء الشر قبل وقوعه.

وربما استدل بها على جواز التطعيم؛ لأن بعضهم يقول: كيف الطعام وما قد نزل المرض؟ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَصَبَّحَ بِسَبْعِ تَمَرَاتٍ عَجْوَةٍ لَمْ يَضُرَّهُ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ» [رواه البخاري برقم (٥٧٦٨)، ومسلم برقم (٢٠٤٧)].

لا بأس أن الإنسان يستخدم العلاجات الوقائية قبل نزول الأمراض. والله المستعان.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف:٦٨ - ٦٩].

يذكرون أن أخاه اسمه بنيامين.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف:٧٠] أي: بعد أن ضيَّفهم وارتاحوا من عناء سفرهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:٧٠] وهو الإناء الذي يُسْقَى فيه ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يوسف:٧٠] وصاح صائح أو نادى منادٍ: "أيتها العير، إنكم لسارقون".

﴿قَالُوا۟﴾ لصائح الملك: ﴿وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [يوسف:٧١] حتى تتهموننا بالسرقة؟ قالوا: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ إناء الملك ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ

بَعِيرٖ﴾ أي: نعطيه جائزة وبشارة حمل بعير ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ أي: أنا ضامن، كفيل.

قالوا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ٧٣﴾ وفيه الحلف بدون استحلاف لتبرئة نفسه.

قالوا: ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ٧٤﴾ [يوسف:٧٤].

﴿قَالُواْ﴾ جنود الملك: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٥﴾ [يوسف:٧٥].

قالوا: كان الحكم في شريعة يعقوب أن السارق يُؤخذ بسرقته، فأقرَّهم بحكم أبيهم.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف:٧٦] دفعًا للتهمة؛ حتى لا يقال هذا تمارٍ ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] في حكم ملك مصر الكافر، وإنما أخذه بحكم نبي الله يعقوب ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦]. وهذه آية عامة: اسأل من هو أعلم منك إذا أشكل عليك شيء.

قالوا عند ذلك، وهذا من كذبهم الذي قد صدر مثله: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ [يوسف:٧٧]. ذهب المفسرون في هذا الموطن إلى أن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما كان صغيرًا أخذ على جدته، أو من هذا الكلام الذي ليس عليه دليل ولا يحتاج إليه. هم كاذبون، لماذا نذهب ونلتمس معنى لقولهم: "إن يسرق فقد

سرق أخ له من قبل"؟ قولهم كذب منهم. لو قالوا: "ما أدرانا ما وجه هذا؟" لكان هو الصواب. لكن مباشرة اتهموا الغائب، اتهموا المظلوم.

﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف:٧٧]. وبهذا تعلم أن المعصية تجر إلى معصية، والكذبة تجر إلى كذبات، يعني: الرجل قد غاب عنهم وضاع منهم، وهم مع إساءتهم إليه، ومع ذلك لما لم يجدوا مناصًا من هذه التهمة رموها عليه.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف:٧٧] صبر ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩﴾ [يوسف:٧٧-٧٩].

﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ [يوسف:٨٠] أقبل بعضهم يناجي بعضًا يتشاورون فيما بينهم ما الذي يعملونه.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف:٨٠].

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٨١] هذا كبيرهم وعاقلهم يقول لهم هكذا ﴿فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ [يوسف:٨١] وهذا من باب إنصافه ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف:٨١] يعني: ما ندري ما جرى في السر، الذي ظهر لنا أن ابنك سرق.

﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف:٨٢].

المراد: اسأل أهل القرية، وليس هذا بمجاز كما يقول الحجازيون. وإنما القرية قد تطلق على المساكن، وقد تطلق على السكان، وقد تطلق على مجموعهما، ويعرف ذلك بالقرائن. ما يذهب يسأل البيوت، إنما يسأل أهل القرية، وما يذهب ويسأل البعير، إنما يسأل صاحب العير.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣].

الإنسان إذا اتُّهم بشيء ربما لا ترتفع عنه التهمة حتى وإن تاب، إلا أن يشاء الله. فهو قد لدغ منهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين. غيَّب ولده يوسف بدعوى أنه أكله الذئب، والآن يخشى أنهم غيَّبوا ولده بنيامين بدعوى أنه سرق. ومع ذلك قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾صبر بغير تشكٍّ ولا تسخُّط ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:٨٣]. حسن الظن بالله والأمل فيه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ [يوسف:٨٤] تركهم وشأنهم ﴿وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤] لم يذكر بنيامين؛ لأن يوسف أحب إليه ولأنه الأصل ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤] مكظوم.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٥-٨٧].

وستأتي المرحلة الأخيرة من قصته وكيف عرفوه وعرفهم. فهي قصة عظيمة من حيث الابتلاء، ومن حيث شدة بعد الحبيب، ومن حيث الفرج بعد الشدة، ومن حيث عدم اليأس من روح الله.

عند ذلك لم ييأس يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل قال لأبنائه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف:٨٧] أي: تلمسوا الخير. التحسُّس هو التلمُّس في الخير، والتجسس هو التلمُّس في الشر.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ﴾ [يوسف:٨٧] مهما بلغت بك الشدة والضيقة، مهما طال المرض، مهما اشتد الفقر، مهما كثر الأعداء، مهما عظم البلاء؛ لا تيأس من روح الله! لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعال لما يريد، لا يعجزه شيء.

ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

عسى الكرب الذي أمسيت فيه ... يكون وراءه فرج قريب

فلا تيأس.

مرض أيوب ثمانية عشر سنة، فرجع بعدها على أحسن حال، وافتقر ورجع غنيًا، صبَّ الله عليه جرادًا من ذهب وهو يغتسل.

وهكذا غاب يوسف طريدًا ثم عاش عزيزًا ملكًا.

وهكذا كم من القصص التي حصلت على مر التاريخ نرى فيها عظيم تصرف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لو كان الأمر إلى المحسوسات، لرأينا أن هذه الأسباب لا تقتضي الحصول على هذه الأشياء. لكن هو الله، هو الله الذي لا يعجزه شيء، ولا يُكرثه شيء، ولا يؤوده حفظهما. فعلّق قلبك بالله، لا تيأس أبدًا.

في المعنويات وفي الحسيات، ما عندك فهم؟ لا تيأس وتقول: "أنا ما يمكن أبرز!". ارجع إلى الله، قد يُفهمك ويعلّمك. ما عندك أولاد؟ لا تقل خلاص انقطعت الأسباب. قال الأطباء: "لا أبناء؟" قد رزق الله إبراهيم وزكريا في سن لا يُولد فيه! بل رزق مريم ولدًا بغير زوج. فلا تيأس.

اشتد مرضك وقال لك الأطباء: "هذا المرض لا دواء له"؟ لا تيأس! لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ دَاءٍ إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ» [رواه البخاري برقم (٥٦٧٨)، ومسلم برقم (٢٢٠٤)].

لا تيأس! اليأس هو الذي يحطم، اليأس هو الذي يقضي على الإنسان. أما إذا كان واثقًا بالله، فإن الله عند ظنه. ولعلكم قد سمعتم بقصة ذلك الشاب أو المريض الذي كان يتعالج من السرطان، فقال له الطبيب: "أنت ما عاد لك علاج ولا شفاء" أو بمعنى الكلمة. فغضب من هذه الكلمة: "كيف طبيب يجزم بأن لا علاج لي؟!". فرمى صحيفة العلاج فوق المائدة وقال له: "والله لا أتناول من علاجك حبة! كيف تجزم؟". قال: "وتركت العلاج وذهبت إلى العمرة ويسّر الله بها. ثم بينما أنا نائم، رأيت رؤيا في المنام، وكأني دخلت الجنة". قال: "ورأيت فيها عسلًا يخرج مثل نافورات، فقلت في نفسي: لِمَ لا آخذ دبة وأملأها عسلًا من أجل إذا رجعت إلى البيت؟".

قال: "ما وجدت شيئًا.

فطأطأت رأسي لأشرب من تلك النافورة، فسمعتُ كأن شيئًا ارتفع إلى داخل جوفي. فمن شدة الفزعة قمتُ من النوم على طعم العسل وتعجبتُ".

قال: "فإذا بأول يوم يهدأ الغثيان "كان عنده سرطان في المعدة" يهدأ التقيؤ، ويومًا بعد يوم أجد نفسي في تحسن.

بعد أيام ذهبتُ لأعمل كشفًا ومنظارًا، ولا يوجد شيء، إلا أن فيه آثارًا كأن كان عندك مرض أو شيء. ما بقيت حتى آثاره!". قال لهم: "كان عندي سرطان". فقال له الطبيب: "ما بقي شيء البتة". وهو عامي غضب من جزم الطبيب أنه لا شفاء لك. ما هو صحيح! ما من مرض إلا وله شفاء ودواء إلا الموت. عرفه من عرفه وجهله من جهله.

فعليك أن تكون لاهجًا إلى الله، لا تيأس من روح الله.

﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧].

اليأس المطلق لا يصدر إلا من كافر. أما ما دمت على هذه الحياة، فرَجاؤك على أي حال كان، حتى وإن انقطعت السبل. تنظر يمينًا لا سبيل، يسارًا لا سبيل، أمامًا لا سبيل، خلفًا لا سبيل. لا تيأس من السبيل الذي يمتد من السماء. إذا أغلق العباد أبوابهم، لا يُغلق الباب الذي بينك وبين الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكفى به بابًا مفتوحًا. والله كفى به!

لو لم يكن إلا أنك تتعبد لله بالرجاء. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠]. التعبد لله عَزَّوَجَلَّ بالرجاء من أفضل العبادات، هي عبادة الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء. كلهم يرجون الله ويأملون فضله، ويأملون عفوه، ويأملون بركته، ويأملون رزقه،

ويأملون عافيته. ولو انقطع الرجاء، انقطعت الحياة. يضيق صدرك، يضيق صدرك حتى تموت همًا وغمًا، لكن مع الرجاء والأمل ما تنقطع الحياة. يجد الإنسان نفسه في حالة حسنة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف:١١٠].

حتى عند الموت، لماذا الكافر يشتد عليه الموت ويرهب الموت؟ لأنه لا رجاء عنده، لا رجاء عنده. أما المؤمن عنده رجاء، إذا خرجت روحه من جسده ذهبت إلى نعيم بإذن ربها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:٢٧ - ٣٠]. حتى الموت وهو يرجو الله. فيه السيف فوق رأسه وهو يرجو الله عَزَّوَجَلَّ. كفا ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة. فالذي حطم الناس هو ضعف هذه العبادة الجليلة: الرجاء في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف:٨٨]. اعترفوا وأقروا بالضعف.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩] مخطئون.

﴿قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠].

كيف سيكون حالهم لما يقول: "أنا يوسف!" سيستغربون جدًا.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٩١] أكرمك ورفعك وأعزك ونحن أخطأنا. اعتراف بالذنب.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] هذا فعل الكرماء، اللئيم إذا تمكن منك أهانك، لا سيما إذا كانت الحجة له، ربما يهينك بالقول وربما يهينك بالفعل، لكن الكريم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ يرى أن المؤاخذة لا تليق به ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف:٩٣]. قميص، وما عسى فيه؟! لكن هو الله الذي يشفي من يشاء ويعافي من يشاء.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف:٩٤] يعني: تَتَهَكَّمُونَ بِي وَتَتَكَلَّمُونَ عَلَيَّ.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف:٩٨]. التوبة تجب ما قبلها.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف:٩٩] أمه وأبوه. فمن قال بأن أمه قد ماتت وهو صغير فلا دليل عليه ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف:٩٩] مصر البلد المعروف ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] السرير ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾ [يوسف:١٠٠] تحيتهم كانت في ذلك الزمان ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف:١٠٠] هذه حقيقة الرؤيا التي رأيتها بأن اثني عشر كوكبًا يسجد له والشمس والقمر معهم ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [يوسف:١٠٠] يعني: لم يذكر إخوته بسوء ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن

نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ [يوسف:١٠٠] أضاف النزغ إلى الشيطان ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

﴿۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢]. لكن لله الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ١٠٦ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١٠٣ - ١١١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ» إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾ [البقرة:٢٦٠] [رواه البخاري برقم (٣٣٧٠)، ومسلم برقم (٢٣٧٤)]. «وَيَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَا أَجَابُ الدَّاعِيَ» [رواه مسلم برقم (٢٣٧٥)].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرابيًا فأكرمه، فقال له: «ائْتِنَا». فأتاه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلْ حَاجَتَكَ؟» فقال: ناقة نركبها، وأعنز يحلبها أهلي يعني: عرض عليه أن يسأل ما يريد، فسأل شاةً. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَزْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِثْلَ عَجُوزِ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟» قال: إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق. فقال: «مَا هَذَا؟» فقال علماؤهم: «إِنَّ يُوسُفَ لَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ أَخَذَ عَلَيْنَا مَوْثِقًا مِنَ اللهِ أَلَّا نَخْرُجَ مِنْ مِصْرَ حَتَّى نَنْقُلَ عِظَامَهُ مَعَنَا». قال: «فَمَنْ يَعْلَمُ قَبْرَهُ؟» قالوا: «عَجُوزُ بَنِي إِسْرَائِيلَ». فبعث إليها فأتته، فقال: «دُلِّينِي عَلَى قَبْرِ يُوسُفَ». قالت: «حَتَّى تُعْطِيَنِي حُكْمِي». قال: «مَا حُكْمُكِ؟» قالت: «أَكُونُ مَعَكَ فِي الْجَنَّةِ». فكُره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه: «أَنْ أَعْطِهَا حُكْمَهَا». فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستنقع ماء فقالت: «انْضِبُوا هَذَا الْمَاءَ»، فأنضبوا. قالت: «احْفِرُوا وَاسْتَخْرِجُوا عِظَامَ يُوسُفَ». فلما أقلوها إلى الأرض، إذ الطريق مثل ضوء النهار [أخرجه أبو يعلى برقم (٧٢٥٤)].

انتقد على هذا الحديث: قضية عظام يوسف لأن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء. وكان الجواب أنه ذكر الجزء ويراد به الكل، يعني: لا تعارض بين هذا الحديث وبين أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء.

هذه أطول قصة ذكرها الله في موطن واحد عن رجل واحد في مكان واحد من كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وهي قصة عظيمة لا يمل القارئ من تكرارها، ومن تكرار التأمل لما فيها.

تمت قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ

قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ

أُرسل شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم مدين، وقد فشا فيهم الشرك والتطفيف. قال الله تعالى في سورة الأعراف، بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف:٨٥ - ٨٦] أي: على كل طريق كانوا يجلسون ويتوعدون المؤمنين ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾ [الأعراف:٨٦] أي: كثر نسلكم ونماكم وكثر أموالكم ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦] الكافرين المعرضين ممن كان قبلكم، ممن دمر الله عليهم ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف:٨٧] كفروا ﴿فَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف:٨٧] انتظروا حتى يحكم الله بيننا: بموت بَرٍّ فيستريح من فاجر، أو بموت فاجر فيستريح منه البر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧] الفاصلين بين عباده.

قال الملأ الذين استكبروا من قومه: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف:٨٨].

قال شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨]؟ استخدموا القوة لصدهم عن دينهم. ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ [الأعراف:٨٩] هو لم يكن في ملتهم،

إنما هو من باب الرد على قولهم ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ [الأعراف:٨٩] بالإيمان ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩]. هذا دعاء عليهم: أي ربنا احكم بيننا وبينهم. وقال الملأ الذين كفروا من قومه: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠].

فأخذتهم – أي الكفار – الرجفة، أي: الزلزلة، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١] موتى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٢] يعني: أصبحوا كالأمس الدابر لا ذكر لهم، خسروا دنياهم وأخراهم ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ [الأعراف:٩٣] هذا بعد موتهم، وقيل قبل موتهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣] يعني: كيف أحزن وأندم على قوم كافرين؟ لا مبالاة بهم.

وقال في سورة هود، بعد قصة قوم لوط أيضًا وهذا دليل على أنه أتى بعد لوط.

أما من زعم أنه هو الذي هاجر إليه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فقوله بعيد فبين شعيب وموسى مفاوز كثيرة، وإنما وهم بعضهم ظنًا أن مدين التي هاجر إليها موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هي مدين شعيب النبي، وليس كذلك. حتى وإن كانت البلدة، لكن ليس هو النبي. فالرجل الذي تزوج منه موسى ليس بالنبي شعيب.

فقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود:٨٤] يحيط بكم ويهلككم ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [هود:٨٥] العدل ﴿وَلَا

تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود:٨٥ - ٨٦] يعني: ما أبقاه الله لكم من الخير خير لكم.

قالوا: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود:٨٧] هذا من التهكم به والسخرية.

قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود:٨٨].

وهكذا دعوة جميع الرسل، الدعوة إلى الإصلاح، صلاح الظاهر والباطن.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ [هود:٨٩] من الغرق ﴿أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ﴾ [هود:٨٩] من الريح العاتية التي دمرت عليهم ﴿أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ [هود:٨٩] من الصيحة التي دمدَمَت عليهم ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود:٨٩] حيث رفعهم الله عَزَّوَجَلَّ وجعل عاليها سافلها ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود:٨٢]. كما تقدم خوفهم بحال الأمم السابقة.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود:٩٠].

قالوا معارضين لدعوته ونصحه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] لا نعلم ولا نفهم ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ [هود:٩١] لا ناصر لك ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ [هود:٩١] القبيلة التي أنت منها لرجمناك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾

[هود:٩١] مالك منزلة عندنا. فرد عليهم: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [هود:٩٢] يعني: تتخوفون وتكرمون رهطي، وتشركون بالله ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ [هود:٩٢] أي: مشركين به مندين لا تعملون له بطاعة ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ [هود:٩٢ - ٩٣] على حالكم الذي أنتم عليه من السوء. وهذا ليس من باب التقرير، إنما هو من باب التهديد لهم ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ [هود:٩٣] بالإسلام والدين القويم ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [هود:٩٣].

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود:٩٤ - ٩٥]. سيأتي أن الله عَزَّوَجَلَّ عذبهم بعذاب يوم الظلة. سلط عليهم الحرارة الشديدة حتى أصابهم العطش وشدة الحر، ثم ظهر لهم مثل السحابة السوداء، فأرادوا أن يستظلوا تحتها فكان تحتها هلاكهم.

وقال في الحجر بعد قصة لوط أيضًا: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ [الحجر:٧٨] الأيكة: الشجرة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [الحجر:٧٩] في طريق وأنت تسافر تمر عليهم وتعرف أماكنهم.

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ [الشعراء:١٧٦ - ١٨٤] والأمم التي قبلكم.

قالوا معارضين لدعوته ولنصحه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥﴾ [الشعراء:١٨٥] أنت مسحور تتكلم بكلام المجانين، ما أحد يقول مثل هذا الكلام ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء:١٨٦] يعني: يستيقنون أنه كاذب ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء:١٨٧] عذاب ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء:١٨٨] ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾ [الشعراء:١٨٩ - ١٩١]. وهكذا يرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسول تلو الرسول إلى الأمم، فإذا أعرضوا، أهلكهم ودمدم عليهم.

تمت قصة نبي الله شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

هو من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ﴾ [الأنعام:٨٤]. والصحيح أن الضمير عائد على إبراهيم دون نوح عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليه في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء:١٦٣].

وقال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء:٨٣] المرض الشديد، حتى فقد ماله وفقد أهله. ذكروا في التفسير أنه مرض ثمانية عشر سنة ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨٤] يعني من الله عليه بمِنَن عظيمة كريمة.

وقال تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص:٤١ - ٤٢] أمره الله أن يركض برجله في الأرض، فيخرج من ضربته ماء. هذا مغتسل بارد وشراب؛ ماء بارد يغتسل منه لإزالة ما وقع في جسمه من الجرب ونحوه، وشراب لدواء ما في داخل بطنه. ومن هذا يستدل على أن الدواء منه ما يُستعمل خارجيًا كدهانات ونحوها، ومنه ما يُستخدم مأكولًا أو مشروبًا ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٤٣] رحمة من الله بإزالة مرضه، ورحمة من الله برد أهله ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص:٤٤] لأنه كما يذكر أهل التفسير أقسم أن يضرب امرأته مئة جلدة، فبرَّ الله قسمه إذ لم تُضرَّ فيه المرأة. و"الضغث" هو العصا التي فيها الشراميخ.

يذكرون أن فيها مئة فرع يسير، فاضرب به ولا تحنث في يمينك ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤] صابرًا على المرض والشدة، نعم العبد إنه أواب، رجَّاع إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وهنا لطيفة يذكرها بعض أهل العلم، وهي أن السلامة مع الاستقامة أحسن من البلاء مع الاستقامة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر سليمان وما امتن عليه به ثم قال في آخر قصته: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]. وذكر أيوب وما لاقاه من المرض والتعب والعناء وقال في آخره: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]. فكانت السلامة مع الاستقامة أحسن، كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَالصِّحَّةُ لِمَنِ اتَّقَى اللهَ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى».

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرَادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْثُو فِي ثَوْبِهِ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا أَيُّوبُ، أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنْ لَا غِنَى لِي عَنْ بَرَكَتِكَ» [رواه البخاري برقم (٣٣٩٢)].

فيه: جواز الغسل عريانًا.

وفيه أن رزق الله عَزَّوَجَلَّ قد يكون بغير الأسباب الظاهرة، وإنما يكون بالاستقامة والدعاء ونحو ذلك من الأسباب غير المباشرة.

فها هو أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يغتسل عريانًا، سقط عليه هذا الجراد من الذهب، فجعل يجمعه في ثوبه، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: "ألم أكن أغنيتك عما ترى؟" قد أعطاه الأبناء وأعطاه الخير العظيم، قال: "بلى ولكن لا غنى لي عن بركتك".

تمت قصة نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله ذو الكفل عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد زعم قومه أنه ابن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن الله أعلم بذلك. ما عندنا في القرآن الكريم إلا أن هناك نبيًا يقال له "ذو الكفل".

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٥ – ٨٦].

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضًا في سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص:٤٥ – ٤٨].

لا يلزم أن يكون ذو الكفل من ذرية أيوب، لأن إسماعيل ذُكر بعد أيوب وهو قبله. فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليهم مقرونًا مع هؤلاء السادة الأنبياء، أنه نبي عليه من ربه الصلاة والسلام، وهذا هو المشهور. وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلًا صالحًا وحكمًا مقسطًا عادلًا. وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم.

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد أنه لم يكن نبيًا، وإنما كان رجلًا صالحًا، وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل فيفعل، فسمي "ذا الكفل". هذه أقوال كما ترى لا دليل عليها.

والذي يظهر أنه نبي من الأنبياء، ولكن ما عندنا إلا أنه من أُرسل، ولا كذلك يتوفر لدينا الكثير من شأنه، كما قص الله عَزَّوَجَلَّ في غير ما واحد من الأنبياء.

تمت قصة نبي الله ذو الكفل عَلَيْهِ السَّلَامُ

قصة أصحاب الرس

قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ۝٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ۝٣٩﴾ [الفرقان:٣٨ – ٣٩].

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق:١٢ – ١٤].

أصحاب الرس: قومٌ ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم. وقد زعم بعضهم أن "الرس" هو البئر، وذلك أنهم قتلوا نبيهم وألقوه في ذلك البئر، والله أعلم.

قصة قوم ياسين (أصحاب القرية)

ومنهم أصحاب القرية أصحاب ياسين. قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٣ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝١٥ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١٨ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا

غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩﴾ [يس:١٣ - ٢٩].

وقد اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية هي أنطاكية، والله أعلم. وهناك قرى بائدة أخرى. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في شأن الأنبياء: ﴿مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر:٧٨]. فالذين قُصَّت قصصهم هم القليل منهم، وأكثرهم لم يُذكر شأنهم لا في القرآن ولا في السنة.

تمت قصة أصحاب الرس وقوم ياسين.

قصة نبي الله يونس بن متى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

قال الله تعالى في سورة يونس: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس:٩٨]. يعني كانوا قد استوجبوا العذاب، ورفعه الله عنهم حين آمنوا وصدقوا في إيمانهم. وليس معنى الآية أنه متع هؤلاء القوم إلى حين ثم أهلكهم، لا. متع القرية إلى حين ما داموا مؤمنين، فلما غيروا وبدلوا جاءهم العذاب الأليم.

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء:٨٧] "ذا النون" أي: الحوت الكبير، وأُضيف إليه لأنه ابتلعه وسلمه الله منه ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء:٨٧] أي: مغضبًا من قومه إذ لم يتبعوه ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] استيقن أن لا يُضيّق الله عليه. الظن هنا بمعنى الاستيقان، و"نقدر" بمعنى: نضيّق ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء:٨٧ – ٨٨].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾ [الصافات:١٣٩ – ١٤٠] يعني ذهب وركب في الفلك المحمل ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١] يعني وقعت المساهمة أن يرموا ببعض الركاب في البحر لأن السفينة كانت تغرق ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾ [الصافات:١٤٢ – ١٤٦] قيل: الدباء تمنع وصول الذباب إلى جسمه ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات:١٤٧] قيل: المعنى

بل يزيدون، أو أن المعنى مئة ألف والحقيقة ويزيدون في عين الناظر، وإلا فإن الله عَزَّوَجَلَّ بكل شيء عليم ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات:١٤٨].

وقال تعالى في سورة ن: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾ [القلم:٤٨ - ٥٠]. قال أهل التفسير: بعث الله يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلى أهل نينوى من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ. فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم، فلما طال ذلك عليه من أمرهم، خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث. ثم سلمه الله عَزَّوَجَلَّ وسلمهم؛ سلمه بتوبته واستغفاره، وسلمهم الله بتوبتهم ورجوعهم من كفرهم وعنادهم.

عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: مرضت بعثمان بن عفان في المسجد، فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليَّ السلام.

فأتيت عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء؟ قال: لا وما ذاك؟ قال: قلت: لا إلا أني مررت بعثمان آنفًا في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يردد عليَّ السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام؟ قال: ما فعلت. قال سعد: قد قلت بلى حتى حلف وحلفت وكلاهما صادق بار. قال: ثم إن عثمان ذكر فقال: بلى وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفًا وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فاتبعته، فلما

أشفقت أن يسبقني إلى منزله ضربت بقدمي الأرض، فالتفت إلي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «مَنْ هَذَا أَبُو إِسْحَاقَ؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله. قال: «فَمَهْ». قَالَ: قُلْتُ: لَا وَاللهِ، إِلا أَنَّكَ ذَكَرْتَ لَنَا أَوَّلَ دَعْوَةٍ ثُمَّ جَاءَ هَذَا الْأَعْرَابِيُّ فَشَغَلَكَ، قَالَ: « نَعَمْ دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ هُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا مُسْلِمٌ رَبَّهُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلا اسْتَجَابَ لَهُ» [رواه الترمذي برقم (٣٥٠٥)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٤٦٨)، والحاكم في المستدرك برقم (١٨٩٧) وصححه].

الله أكبر! دعوة عظيمة ومن أسباب استجابة الدعاء، لكن كما تقول العامة: السيف بضرابه.

كم من إنسان يدعو بهذه الدعوة ولا يستجاب له: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وربما دعا بالحديث الآخر: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك الصحابي: «دعا الله بإسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»،[رواه الترمذي برقم (٣٤٧٥)، وأبو داود برقم (١٤٩٣)، والنسائي برقم (١٣٠٠)، وابن ماجه برقم (٣٨٥٧)].

ولا يستجاب له لماذا؟ للمثل الذي تقدم: السيف بضرابه.

ليس كل من حمل السيف يقتل، ليس كل من حمل السيف يقطع، مع أنه سيف واحد ربما يقع في يد أحدهم إذا ضرب به شخص فلقه نصفين، وإذا يقع في يد الآخر ولا يؤثر فيه ولا يجرح.

فكثير من الدعوات ندعو الله بها ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ بها، لكن عندنا ضعف إما في العمل وإما في اليقين وإما في التوكل وإما غير ذلك. فلذلك يبقى أحدنا يدعو ويدعو ويدعو وربما استبطأ الإجابة، نسأل الله السلامة والعافية. بينما كثير من المؤمنين الموحدين الطائعين لرب العالمين لو أقسم على الله لأبره، لو دعا الله عَزَّوَجَلَّ بدعوة استجابها له في الحال وصلح لها المآل.

فليس الخلل في الدعوة وليس الخلل من جهة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو القائل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. إذا الخلل من عندنا نحن، الخلل من الداعي. إما أنه دعا بدعوة علم الله عدم صلاح استجابتها له فادخر الله أجرها، أو صرف الله عنه من الشر مثلها، أو يؤخرها الله عَزَّوَجَلَّ حتى يأتيه بها. وإما أنه دعا دعوة فيها نوع من المجاوزة والإثم وقطيعة الرحم.

وإما أنه دعا بدعوة ليس فيها ذلك، لكن عنده مال حرام، عنده فعل حرام، غذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟ فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن لا يعاقبنا بسوء ذنوبنا وأعمالنا، ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقنا حسن الظن به وأن ييسر لنا أمورنا. فانظر إلى هذه الدعوة العظيمة: لم يدع بها مسلم ربه في شيء إلا استجاب له.

إذًا إذا تخلفت الاستجابة فالله لا يخلف الميعاد، هو بسببك أنت لم تأت بها ولا بشروطها، لأن الأقوال المجردة لا تكفي. بعض الناس يظن أنه فقط القول المجرد ويأتي يقول لك: أنا أبحث عن الاسم الأعظم.

وفر على نفسك، الاسم الأعظم هو الله. لكن يختلف الداعي بهذا الإسم، فذاك يدعو يقول: يا الله اغفر لي فيغفر الله له، يا الله ارزقني فيرزقه الله، يا الله

اصرف عني فيصرف الله عنه. والآخر يقول: اللهم إني أسألك بأسمائك وصفاتك، ويزيد من الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ ولا يستجاب له، والسبب بعض ما تقدم. فنسأل الله السلامة والعافية.

قد علمنا أوقات استجابة الدعاء: السجود، قبل السلام، بين الأذان والإقامة، الثلث الأخير من الليل، دعوة المسافر، دعوة الصائم، كذلك الساعة الأخيرة يوم الجمعة، الدعاء في عرفات، الدعاء عند الجمرات، الدعاء في الصفا والمروة، دعوة المضطر. علمنا الأوقات، لكن المشكلة أننا لم نعمل وربما لم نستيقن وربما عندنا ما عندنا من القصور الذي يؤخر استجابة الدعاء. فلله الحكمة البالغة.

قال: ورواه الترمذي والنسائي من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد به.

عن عبد الله قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [رواه البخاري برقم (٣٤١٤)].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [رواه البخاري برقم (٣٤١٥)]، ونسبه إلى أبيه.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [رواه البخاري برقم (٣٤١٣)، ومسلم برقم (٢٣٧٧)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قصة المسلم الذي لطم وجه اليهودي حين قال: "لا والذي اصطفى موسى على العالمين" [رواه البخاري برقم (٣٤١٢)].

قال البخاري في آخره: «وَلَا تَقُلْ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى». وهذا اللفظ يقوي أحد القولين من المعنى: لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى،

أي ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس، وإلا فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفضل من يونس. والقول الآخر: لا ينبغي لأحد أن يفضلني على يونس بن متى، كما قد ورد في بعض الأحاديث: «لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَلَا عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [رواه البخاري برقم (٣٤١٦)]. وهذا باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين.

يعني إذا كان على سبيل التنقص إذا ذكر الأنبياء والمرسلين على سبيل التنقص لا يجوز المفاضلة بينهم، أما إذا كان ذكر أفضلهم وأقربهم إلى الله فهو محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ونوح، وهكذا كل نبي بقدر قربه من الله.

تمت قصة نبي الله يونس عَلَيْهِٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

وهو موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. هو **"كليم الرحمن"**، وأكثر الأنبياء قصصًا في القرآن وفي سنة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾ [مريم:٥١ – ٥٣].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في سورة القصص ولادته وهجرته وعودته ودعوته فقال تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص:١ – ٦].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ أي: بعد وضعها لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧] من ثديها ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ من الجنود والقابلات أن يقتلوه ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٧] تلقيه في تابوت وتلقي التابوت في اليم، كما جاء موضحًا في آية في سورة طه: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [طه:٣٩]. واليم: البحر أو النهر، وهل كان فرعون على نهر النيل أو كان على بحر السويس أو العقبة؟ ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

هذه الآية تضمنت أمرًا ونهيًا ووعدًا: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ أمر، ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ أمر، ﴿وَلَا تَخَافِي﴾ نهي، ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ نهي، ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ وعد، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وعد. فسبحان الله، جمع الله عَزَّوَجَلَّ قصة موسى من ولادته إلى الرسالة في آية. وسيأتي في سورة طه ما هو أوسع من هذا.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] أي: بعد أن ألقته أمه ليكون لهم عدوًّا وحزنًا، أي: بعد أن التقطوه ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص:٨ - ٩] اتركوه، ليكون قرة عين لي ولك. فكان قرة عين لها ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩]. فهل كان لا ولد له؟ لعله هذا.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:١٠] لفقد ولدها ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص:١٠] أي: تبدي شأن ولدها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠] أي: ثبتها الله ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص:١٠ - ١١] أي: انظريه واطلبي أثره وخبره ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١] يعني: نظرته من مكان بعيد قليلًا لا يتفطنون أنها أخته ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص:١٢] تحريمًا قدريًا أن لا يرضع من غير أمه ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢] يعني: يكفلونه لفرعون حتى لا يظن أنه ابنها، وهم له ناصحون لكونه قريبًا منكم ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص:١٣].

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤].

المراد بـ "الاستوى" هنا الكمال. استوى الطعام: نضج. استوى فلان: شبَّ. استوى الحب في سنبله: اشتد.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص:١٥] أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥] أي: من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِۖ﴾ [القصص:١٥] هو لم يُرِدْ القَضَاءَ عَلَيْهِ إِنَّمَا أَرَادَ تَأْدِيبَهُ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص:١٥ - ١٦] مع أنه قتل خطأ ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝١٧﴾ [القصص:١٦ - ١٧]. ولهذا السبب يعتذر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوم القيامة حين يطلب منه الشفاعة يقول: "قتلت نفسًا لم أومر بقتلها".

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: معينًا لهم.

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ الخوف الطبيعي معذور فيه ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ يعني: كل يوم مشكلة مشكلة.

جاء أحدهم إلى الشيخ مقبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ستة أيام من وصوله، قال له: يا شيخ أنا أشتكي من كذا وكذا. قال: كم لك عندنا يا ابني؟ قال: ستة أيام. قال: ارحل! قد يظنها البعض شدة من الشيخ، ما هي بشدة. يعني: ما أحد يأتي إلى دار في ستة أيام ويخاصم. هذا صاحب مخاصمة.

وقال في تمام حديثه معه: قال بعضهم له: خمس سنوات ما قد عرفت عليه شكوى ولا يعرف اسمه. وهذا الذي يأتيك بعد وصوله ربما يكون منازعًا مخاصمًا يشغلك ويشغل غيره لأدنى شيء يشتكي، وإلا الخلافات ما تنتهي بين الناس، يختلف هذا مع زوجته، وهذا يختلف مع ابنه، وهذا يختلف مع جاره، وهذا يختلف مع صاحبه وزميله، ويُنظر في ذلك كل خلاف بحسبه. لكن بعضهم يعجبه إلا يكبر الخلافات. فانظر إلى موسى قال له: "إنك لغوي مبين"، اليوم الأول خلاف وأدى إلى القتل، واليوم الثاني خلاف.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص:١٩]. وهذا دليل على تسرعه، وإلا كان بإمكانه أن يقول: يا موسى لا تضربني أنا مسكين، لا تقتلني أنا كذا. لكن قام بفضح موسى في أمر الناس يبحثون عن القاتل ويتربصون بقاتله، لعله من كبار القبط. فزاد على ذلك: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

هكذا حال كثير من الناس، ربما يتكلم أكثر مما يحتاج إليه الموقف. ويخاصم في موطن لا يحتاج إلى خصومة، ويتكلم بما لا يحتاج إليه، إنما هو من باب الفضول.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠] لعله من القبط كان قد أحب موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص:٢٠] لأنهم يعرفون أنه ليس من ذرية القبط، هم يعرفون أنه إسرائيلي، إنما شفعت فيه زوجة

فرعون ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص:٢٠ - ٢١] الدعاء.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

مدين بلد وليست هي في زمن شعيب.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ [القصص:٢٣] غنمها حتى لا تقربا البئر ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ [القصص:٢٣] يعني: لا يستطيع أن يسقي لنا ونحن نساء ضعيفة ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص:٢٤].

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٢٥].

فيه: المجازاة على فعل الخير، "من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه".

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧] فيه أن المهر قد يكون كبيرًا، فهذا أجر نفسه عشر سنوات (ثمان وثلاث سنتين زيادة إن تيسر) مقابل مهر امرأة ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص:٢٨].

فمكث عنده ما شاء الله أن يمكث، وبقي عنده ما شاء الله أن يبقى، وتزوج زوجته. وبه جواز تأخير المهر لأنه تزوجها قبل أن يمهرها، وإنما كان المهر أيامًا يستأجرها بعد ذلك. وبعد ذلك أخذ امرأته معه، دليل على أن المرأة تسكن مع زوجها.

بعد أن خرج هاربًا من فرعون وقومه، نزل في بلاد مدين وتزوج بها امرأة على أن يخدم أباها ثماني سنين، فإن أتم عشرًا كان ذلك تفضلًا منه. فقضى موسى الأجل، وهو أطول الأجلين.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًاۖ﴾ [القصص:٢٩]. فيه أن المرأة تسكن مع زوجها حيث سكن، ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق:٦]، إلا إذا كان بأخذه لها سيؤدي إلى ضررها.

﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص:٢٩] يعني رأيت نارًا ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص:٢٩] يعني أناس يعرفون الطريق أو يدلونا على المكان الذي نحن فيه ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص:٢٩]. لعلهم كانوا في الشتاء، يقول: إن لم أجد خبرًا آتكم بجذوة، قطعة من النار.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص:٣٠] ليست المتكلمة هي الشجرة، لا يجوز لمخلوق أن يقول: أنا الله، لكنه سمع صوتًا من تلك الجهة ومن ذلك المكان ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [القصص:٣١] ثعبان، حية، جاء وصفها بأنها حية، وجاء وصفها بأنها ثعبان، وجاء وصفها بأنها جان. والجمع بينها لعلها في ضخامتها ضخامة الحية، وفي سرعتها سرعة الجان وهو الثعبان

الصغير، فجمعت بين الوصفين ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ [القصص:٣١] خاف منها خوفًا طبيعيًا ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [القصص:٣١] لم ينتظر ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [القصص:٣١] ناداه الله ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ [القصص:٣١] ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ [القصص:٣٢] يعني يدخل يده هنا في صدره فتخرج بيضاء من غير برص، من غير مرض ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص:٣٢] يعني إذا خفت فاضمم جناحك فيذهب الخوف منك.

ولذلك قدم على فرعون مع مهابته ولم يلتفت له ولم يبالِ به. وهذه آية عظيمة أن الله عَزَّوَجَلَّ يرزقك الطمأنينة والسكينة ﴿فَذَٰنِكَ﴾ [القصص:٣٢] إدخال اليد في الجيب وخروجها بيضاء وكذلك ضم الجناح من الرهب ﴿بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص:٣٢] دليلان إلى فرعون وملأه إذا أرادوا الإيمان، لكنهم أبوا.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ٣٣ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤﴾ [القصص:٣٣ - ٣٤] يعني يكون عونًا له.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القصص:٣٥] حجة بينة ظاهرة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾ فرعون وقومه ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾ بالحجج الظاهرة القاهرة، ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أي: لكما وقومكما الغلبة على فرعون وقومه.

استدل بعضهم بهذه الآية على أن السحرة لم يُقتلوا، لأن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، **والذي يظهر**: أنه قتل السحرة، وأراد الله رحمتهم ورفع درجاتهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [القصص:٣٦] دعوى الكافرين في كل زمان وحين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص:٣٧] يعني قال لهم لما قالوا: ما جئتم به السحر، قال لهم: ربي أعلم بمن جاء بالهدى ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨] كذاب، وإلا فهو مخلوق ضعيف يحتاج إلى أكل وشرب وحمام وغسل إلى غير ذلك، الرب هو الغني الحميد سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ [القصص:٣٨] بناءً ضخمًا ﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [القصص:٣٨].

في هذا: دليل على أن موسى أخبره أن ربه في السماء، ليس في كل مكان. وانظر إلى سخافة فرعون، كسخافة الهندوس، سخافة عباد الصليب، عباد عيسى. وإلا عقلًا، فرعون مخلوق مربوب، موجود بعد أن لم يكن. من كان إله الناس قبل وجود فرعون، من كان يتعبد له الناس قبل وجود فرعون؟ دليل على أن فرعون حادث، والحادث لا يكون إلهًا. يعني كيف الآن فرعون عمره، نقول ٥٠ سنة، ٤٠ سنة، ١٠٠ سنة، من كان إله الناس قبل فرعون؟ فإن قالوا: والد فرعون، فمن كان قبل والد فرعون؟

معناه: أن كل زمن له إله. الله عَزَّوَجَلَّ هو الأول الذي ليس قبله شيء.

وهكذا النصارى حين يزعمون أن عيسى هو الإله، من كان إله الناس قبل عيسى؟ لكنه حادث مخلوق مربوب، ونعوذ بالله من الكبر.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٣٩] بالبعث والنشور ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص:٤٠] أغرقهم الله ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٤٠] بئس العاقبة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ [القصص:٤١] أئمة ضلالة، وبهذا تعلم أن إمام الضلالة يجوز أن يسمى إمامًا لكن مع القيد ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [القصص:٤١ - ٤٢] لعنهم الله وأبعدهم وأقصاهم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص:٤٢] في أفعالهم وفي صفاتهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص:٤٣] قوم نوح وعاد وثمود ولوط ومدين ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣] أي أن الله آتاه التوراة تبصر الناس بما يجب عليهم لله.

﴿وَمَا كُنتَ﴾ [القصص:٤٤] هذا خطاب للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن قص الله عليه ما قصه من خبر موسى، قال له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [القصص:٤٤] لكن الله أطلعك على ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [القصص:٤٥] حتى تخبر بما وقع منهم وفيهم ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٥ - ٤٦] الطور هو الجبل الذي فيه الشجرة.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ [طه:٩ - ١٢]. ونحن أمرنا الله أن نصلي في نعالنا.

قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَالِفُوا الْيَهُودَ» [رواه أبو داود برقم (٦٥٢)]، وهذا إذا كانت طاهرة.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ [طه:١٣] اصطفيتك ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه:١٣] من التوراة ونحوها ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٤ - ١٥] قالوا: حتى عن نفسي ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:١٥] يوم القيامة ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [طه:١٦ - ١٧]. الله عَزَّوَجَلَّ عالم بها، لكنه سؤال تنبيه حتى ينتبه فلا يفزع إذا رآها قد صارت ثعبانًا وحية عظيمة، إذ ربما لو أحالها في يده ثعبانًا قبل أن ينبهه لأصابه الفزع.

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه:١٨]. والعصا مهمة، لا سيما لضعيف البصر أو إنسان يمشي في بادية وفي الليل. ربما تجد كلبًا إن لم يكن معك ما تتقيه به أكلك مع ضعفه، أو ربما تجد سارقًا أو ربما تجد متعرضًا. وهكذا إذا كنت تمشي في الظلام، العصا تحدد لك المسافة التي ستضع فيها رجلك. العصا من المهمات لا سيما لسكان البوادي.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠﴾ [طه:١٩ - ٢٠] تسرع ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٢١] نعيدها عصا ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ

جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه:٢٢ - ٢٤] كفر.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه:٢٥ - ٢٨] مقومات الدعوة إلى الله: انشراح الصدر، وتيسير الأمر، واللسان الفصيح ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾﴾ [طه:٢٩ - ٣٠] المعاون والمجالس. يقولون هذه أعظم شفاعة، شفع له أن يكون رسولًا نبيًا ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [طه:٣١ - ٣٣] يعني نتعاون على عبادتك ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه:٣٤ - ٣٦].

ثم سيخبره الله بما منّ الله عليه في حال صغره: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [طه:٣٧ - ٣٨] في حال ولادتك ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩] لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩] على مرأى مني، مع إثبات العينين لله عَزَّوَجَلَّ، لكنه على عرشه ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ [طه:٤٠ - ٤١]. يعني قصة أو آية حوت قصة موسى من أولها إلى بعثته ورسالته. وهناك حديث طويل يسمى بحديث الفتون، مروي عن ابن عباس وذكره ابن كثير في هذا الموطن بطوله، وبعضه له شواهد من القرآن، وبعضهم يجعله موقوفًا على ابن عباس، بمعنى أنه من الإسرائيليات.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾ [طه:٤١] أي اصطفاه لنفسه ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾ [طه:٤٢]. وفيه فضيلة الذكر، وأنه من أسباب النصر في الدعوة ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ۝٤٤﴾ [طه:٤٣ - ٤٤].

فيه: فضيلة الرفق في الدعوة، فإذا كان ربنا عَزَّوَجَلَّ قد أمر بالرفق مع فرعون مع شدة قوله وعظيم فعله، فكيف مع غيره؟ والرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه. فالله عَزَّوَجَلَّ رفيق يحب الرفق، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان رفيقًا بأصحابه، رفيقًا بأمته.

فهذا هو الأصل في الدعوة أن يكون صاحبها متحليًا بالرفق.

والعنف والشدة والغضب في حال نفعه وفي حال تعينه، وإلا الأصل استخدام الرفق في الدعوة. رفق بدون تميع، ورفق مع التميز. والرفق قد يكون جبليًا في الإنسان، طبيعته أنه يرفق بنفسه ويرفق بغيره، وقد يكون مكتسبًا يعمل بالأدلة الواردة في هذا الباب.

والرفق يدخل في جميع أبواب الدعوة، سواء الرفق بنفسه في حال العلم وتحصيله، الرفق بزميله، الرفق بشيخه، الرفق بالمخاطبين، الرفق في جميع الأحوال. والرفق قد يكون أثره أبلغ من العنف، لأنه دعوة بلسان الحال ولسان المقال. وطبيعة النفوس أنها ترتاح لمن يحسن إليها، فإذا وجد منك رفقًا في حال دعوتك له إلى الصلاح وإلى الخير حتى وإن كان قد أخطأ في شيء، قال: جزاه الله خيرًا، رفق بي وأحسن إلي، ونفعني الله برفقه. ومن هذا الكلام.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ﴾ [طه:٤٥] يتجاوز ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] معية علم وإحاطة وهو على عرشه. وهذه المعية

مقتضية للحفظ والكلاءة والنصر ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه:٤٧] كان قد امتهنهم في الخدمة ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه:٤٨].

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٤٩]؟ يعني سؤال مكابرة، وإلا قد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠] ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه:٥١] ما شأن القرون الأولى وما العلم بها؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٢ - ٥٣] مستوية، ممهدة للحياة عليها.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه:٥٣] طرقًا.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝ كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَٰمَكُمْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ ۝﴾ [طه:٥٣ - ٥٤] يعني إذا لم ينزل الله المطر وينبت العشب يموت بعيرك بين يديك، ما تستطيع أن تفعل له شيئًا ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۝﴾ [طه:٥٥]. آية قصيرة تضمنت المبدأ والمعاد.

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه:٥٦] يعني أراه الله عَزَّوَجَلَّ حججًا كثيرة على مثلها يومًا ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٥٧]؟

مع أنه يعلم أنه ليس بساحر ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه:٥٨] ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ

ضُحًى﴾ [طه:٥٩] يوم العيد حين يحشر الناس ويجتمعون ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٠].

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ﴾ [طه:٦١] أي قال للسحرة ومن إليهم: ﴿لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ [طه:٦١-٦٢] قوم فرعون يتناجون على أن موسى ساحر ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾ [طه:٦٣]. الساحر عمره ما يتمكن. انظر إلى كثرة سحرة فرعون ومع ذلك ما نفعوه.

وكثير من السحرة في العالم الآن، سواء منهم الموجود في البلاد الإسلامية أو في البلاد الكافرة، ومع ذلك ما يستطيعون إلا ما أقدروا عليه من استخدام الجن في إيذاء الإنس بالمس ونحوه. وربما تذهب عقول بعضهم أو يداخل بعضهم الوسواس الخناس، لكن لا يستطيع هذا الساحر أن يرقي نفسه ليكون ملكًا أو يكون تاجرًا أو يكون عظيمًا، بل هو حقير عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثم عند الناس حقير تابع لا متبوع، يعني ربما يتقرب إلى الملوك وإلى الأمراء وإلى التجار وإلى الوزراء وإلى العظماء يريد منهم بعض فتات الدنيا ويريد منهم بعض الرفعة. ولو لم يكن إلا هذا لدل على خسة الساحر وعدم التهيب منه والالتفات إليه.

يعني: تجد بعضهم في البلاد الهندية أو الأمريكية البلاد الكافرة غاية ما فيه يعمل بعض الحركات من أجل يتكسب، لو كان الساحر على شيء أنه قلب الأمر رأسًا على عقب، لكن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ وقوله الفصل: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه:٦٩] لا فلاح له لا في الأمور الدنيوية ولا في الأمور الأخروية ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]. آية عظيمة لمن

كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ لأن كثيرًا من الناس يتهيبون من الساحر وهذا يستطيع وهذا يفعل، وهذا ما هو إلا أن الساحر يستمتع بالجني والجني يستمتع بالإنسي.

وربما يقع الأذى لمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يؤذى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢] هذه المسألة، وإلا لو كان السحرة لهم صولة وجولة، أن العلماء الآن مكبلون الذين يتكلمون فيهم ويهينونهم ويكفرونهم ويسفهون طريقتهم وهكذا، لكانوا قد سيطروا على التجار وعلى الرئاسات وعلى الوزارات، لكنهم دون ذلك، ليسوا بشيء، ليسوا بشيء.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الكاهن: «لَيْسَ بِشَيْءٍ» [رواه مسلم برقم (٢٢٣٤)].

بل إن الله ابتلاهم بالخسة حتى في لباسهم، لأن الشياطين تكره الجمال لما كانت الشياطين قبيحة المنظر والمخبر، حتى ضرب الله عَزَّوَجَلَّ بشجرة الزقوم مثلًا برؤوس الشياطين، تكره الجمال، ما تحب الطيب، ما تحب النظافة، ما تحب الطهارة ولهذا تجد الساحر ربما يصلي إن صلى وهو جنب، لأن الجن يمنعونه من الاغتسال. وهكذا يطلبون منه كتابة المصحف أو بعض الأشياء بدم الحيض، يعني دم نجس كريه. المرأة نفسها الحائض تتحرج من ذاك الدم وتطلب ذهابًا له، والشيطان يشدد على الساحر أن يكتب ويتعاطى بدم الحيض. وهكذا مع الميتات يذبحون الميتات ونحو ذلك. فالشاهد أنها خسة في السحرة سواء في ملابسهم، سواء في هيئاتهم، سواء في اعتقاداتهم، سواء في أفعالهم، سواء في حالهم، سواء في مالهم. ومع ذلك نسأل الله أن يخيبهم، قد يقع منهم أذى لكثير من المسلمين، يفرقون به بين المرء وزوجه ومن هذا الشأن. فأمارات السحر ليست موجودة في

موسى ولا في هارون، أمارات السحر موجودة في المبطلين من أمثال فرعون ومن إليه، قال مخبرًا عنهم: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ [طه:٦٤] يقول للسحرة: أجمعوا أمركم، كونوا يدًا واحدة ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه:٦٤].

فعلًا هذه كلمة حق، أفلح من استعلى وأفلح موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه:٦٥ - ٦٦]. يعني بهذه الآية استدل المعتزلة أن السحر ليس له حقيقة وقولهم فاسد، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أخبر أن السحر يتعلم ويعلم، وأن الله قد يضر به من شاء، وسحر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ حتى كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه، وهو أنواع، منه ما يكون تخيلي، ومنه ما يكون بأدوية ونحو ذلك، وأشده سحر الكلدانيين الذين يستعملون الشياطين ويربطون كذلك شأنهم بالتنجيم ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه:٦٧ - ٦٩] ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ [طه:٧٠] حين رأوا الحقائق ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه:٧٠] ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [طه:٧١] هو ما سيأذن لهم كذاب، إنما اتخذها حجة ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١]. وانظر من كذبه.

قال: "موسى كبيرهم الذي علمهم السحر"، وموسى ليس هو الذي دعاهم ولا يعرفهم، وإنما جمعهم فرعون عليه لعائن الله.

وموسى شارد له عشر سنوات عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لكن هكذا طريقة المبطلين ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ

عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:٧١]. من مسائل الجاهلية استخدام القوة إذا عجزوا عن الحجة. قد ذكر هذه المسألة الإمام المجدد في مسائل الجاهلية، يعني إذا أعيتهم الحجج قاموا مستعينين بالسلطان مستخدمين للعنف.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ [طه:٧٢]. لها معنيان: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات، ثم أقسم بالله فقالوا: ﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ لن نؤثرك ولن نقدمك. والمعنى الثاني: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولن نؤثرك على الذي فطرنا وخلقنا ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه:٧٢ - ٧٦].

فنصر الله موسى في هذا الموطن الذي جمع فيه فرعون من جمع لإظهار قوته وإظهار حقيته، ومن نصر إلا من عند الله. وبعد أن ينتصر موسى ويظهر الحق سيحاول فرعون في متابعته وإيذائه حتى يضطر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الهجرة إلى أرض الشام. وسيكون ما يأتي إن شاء الله مما قصه الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [طه:٧٧]. وهذا بعد أن وقف بين يدي فرعون وانتصر على السحرة. أوحى الله إليه أن يُخرج بني إسرائيل من مصر: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه:٧٧] يعني يابسًا، ما كأن الماء قد وقع عليه ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ [طه:٧٧] لا تخاف أن يلحق بك فرعون ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه:٧٧]. لكن هذا الأمر إنما أمره الله به حين وصل إلى البحر، ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم

﴿مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨] أو أن الله عَزَّوَجَلَّ أوحى إليه بهذا الأمر، ثم لما بلغ البحر أمره أن يضرب بالعصا. لا يُستبعد ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨] أي فرعون وجنوده غطاهم اليم ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ۝٨٠﴾ [طه:٨٠]. المن مثل العسل، كان ينزل بالليل مثل العسل يأكلونه. والسلوى طائر السماني يأكلونه، ومع ذلك أبوا هذا الرزق الطيب، المن والسلوى، وطلبوا الكُرَّاث والثوم والبصل، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم.

*** وهنا تنبيه، وهو:**

أن هذا الطائر الذي يسمى بالسلوى يأتي له موسم، وربما رحلة الطائر تكون من بلاد المهرة وما إليها. وكثير من الناس ينصبون له الشباك فيجمعون مئات الطير، إلا أنهم قد يأكلونه ميتة، بعضهم يأخذ رأسه ينزعه نزعًا، وهذا ميتة. الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة:٣]. لا يجوز أن يؤكل إلا أن يُذبح بمحدد على اسم الله. أما أن يُنزع رأسه نزعًا هذه ميتة، أو تموت في الشباك ثم تُطبخ وهذه ميتة. فيُنتبه لمثل هذا. أي حيوان بري من ذوات النفس السائلة لا يحل إلا إذا ذُكِّي، وذكاته بذبحه بآلة محددة مع اسم الله، إلا الحيوان النادّ كالبعير يندّ ما يلحقونه إلا بالرمي على اسم الله، أو كالغزالة لا يلحقونها إلا بالرمي على اسم الله. أما غير ذلك لابد، ومن ذلك السكنقور.

هذا السكنقور صحيح أنه حلال من حيث الحل، حيوان قريب من السحلية، يستخدمونه كالمقوي الجنسي ولغير ذلك من العلاجات. لكن أكثر الناس الذين يأخذونه يعني يأخذونه ميتة. ولذلك انتبه، الذي يشتريه من العطارين لا تشترِه إلا

إذا علمت أنه ذُكِّي. قد رأينا في بعض البلاد، ما أدري الجزائر أو في غيرها، يذبحونه ويُقددونه ويُصلحونه. فالشاهد أنه يُنتبه. أي حيوان بري لا يجوز أن يؤكل إلا إذا ذُكِّي. أما بمجرد نزع الرأس هذا ما هو ذبح، أو كذلك إماتته بدون الذبح هذا غير ذبح.

قال: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [طه:٨١-٨٣]؛ وذلك أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ترك قومه وأتى إلى ميقات ربه ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه:٨٤] ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه:٨٥]. وكان اليهود أسرع الناس انحرافًا، إذ انحرفوا ونبيهم بين أظهرهم. ذهب لميقات ربه، ذهب لأخذ التوراة، ففي فترة أربعين يومًا ما عاد إلا وقد عبدوا العجل.

نعوذ بالله من الضلال، نسأل الله السلامة والعافية، يعني بعضهم يعيش سنوات وتأتيه شبهة، أما هؤلاء ففي فترة ٤٠ يومًا.

زد على ذلك: أن هارون بين أظهرهم يعلمهم ويوجههم ويدرسهم ويوحى إليه بالشرع، وأبوا إلا عبادة العجل. فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، شديد الغضب، حزينًا ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ﴾ [طه:٨٦] بالنصر والتمكين؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ [طه:٨٦] يعني الفترة طالت عليكم حتى استعجلتم؟ ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [طه:٨٦] وهذا هو الواقع ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ [طه:٨٦]. وليس من الشرط أنهم يريدوا غضب الله بلسان

حالهم ونياتهم وأقوالهم، لكن كونهم يفعلون المغضبات هذا يدل على إرادة الغضب بلسان الحال.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه:٨٧] بقوتنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه:٨٧] ذهبًا من بقايا فرعون، قيل بأن نساءهم كانت استلفت هذا الذهب من نساء فرعون. وقيل بأنهم أخذوا هذا المال سرقة. وقيل غير ذلك. فأرادوا أن يتخلصوا منه ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ [طه:٨٧] ألقوها في حفرة ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه:٨٧]. السامري كان قد أخذ من أثر جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فألقى في ذلك الذهب ومع تلك النار، فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار، يخور كما يخور الثور والبقرة الحية. وقيل بأنه يخور لأنه جعل الهواء يدخل من جانب ويخرج من جانب. فقالوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ [طه:٨٨] يعني موسى نسي أن يخبركم أن هذا هو ربه ومليكه ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه:٨٩]؟ كيف يكون رب وهو لا يستطيع أن يتكلم ولا يسمع لهم دعاء ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا؟

ولقد قال لهم هارون من قبل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أبوا أن يطيعوا هارون.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ﴾: يذكرون أن اسمه موسى لكن الله أعلم، لا دليل عندنا على ذلك.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ الرسول جبريل ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ النفس الأمارة بالسوء ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ يعني ابتلاه الله بمرض في جلده حتى أنه لا يحب أن يمسه أحد، فيمشي يقول: "لا مساس لا مساس".

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ وهو الموت ثم البعث والمجازاة.

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ عليه مقيمًا للعبادة.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ يعني يصير رمادًا، ليري الله عَزَّوَجَلَّ بني إسرائيل أن هذا الصنم وهذا العجل ليس برب ولا إله ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه:٩٨-٩٩]. انظر إلى هذا القصص العظيم، قصة موسى.

ما هناك قصة توسع فيها مثل قصة موسى. ذكرت مطولة في عدة سور: سورة القصص، سورة الأعراف، سورة طه، سورة الشعراء، مع ما ذكرت في غيرها من السور، سورة البقرة أيضًا. لكن هذه السور جاءت فيها مطولة، أحداث كثيرة، لا سيما الإفتتائات على أنبيائهم ورسلهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:١٠] ناداه بصوت قوم فرعون. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ ربهم ويطيعونه ويوحدونه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء:١٢] ويقتلونه أيضًا.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء:١٣] معه.

﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ يعني لن يقتلوك.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۝١٦ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ﴾ يؤمنون به. لأن كل نبي يبعث لقومه خاصة ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ صغيرًا؟ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ حتى بلغ أشده واستوى.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ وهي قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يعني بفرعون.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ المخطئين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وهذه والله فيها عبرة يا إخوة عظيمة.

يعني: انظروا إلى فرعون كم قتل، كم آذى، كم ظلم، كم فجر، كم عاث في الأرض. بل لم يقتل مقاتلين بمثل قتله للأطفال، الطفل يخرج من بطن أمه لم يُحدث حدثًا ولم يستوجب قتلًا، وإذا به يُبادره بالذبح والإماتة.

ولما موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقع في قتل القبطي خطًا، ضربه بالعصا فمات منها. واستغفر وأناب، وتاب الله عليه. يأتي فرعون يعيره بهذه الفعلة، ولم يرَ فعلة نفسه. فهكذا كثير من الناس، لا سيما في هذا الزمان. ربما تجد بعضهم عنده من المعاصي والبوائق والمخالفات ما الله به عليم، فإذا رأى من مستقيم مخالفة أو حتى ليست بمخالفة في الواقع عندما هي مخالفة في ذهنه، وإذا به يشنع عليه ويشنع على الداعية ويشنع على حملة الدين: "وأنتم يا المطاوعة، وأنتم يا كذا! ما رأينا منكم!" فما أشبه الليلة بالبارحة. فرعون قاتل الأطفال ومستعبد النساء والكبار، الطاغي الباغي، يعير موسى بقتل واحد قد تاب من قتله، وربما لو كانت تلزمه الدية لأداها، لكن لا تلزمه الدية في هذا الحال لأنهم قوم محاربون ﴿فَفَرَرْتُ

مِنكُمۡ لَمَّا خِفۡتُكُمۡ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكۡمٗا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢١ وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: يعني تمن علي نعمة واحدة أنك ربيتني وأنت استعبدت بني إسرائيل. كان الفراعنة ملوك والقبط ملوك، والإسرائيليون عبيد يزرعون الأرض ويستسخرونهم في البناء وفي غير ذلك من الشأن.

حتى لما مات الفراعنة وتسلط على نسائهم العبيد، يعني صارت النساء في تلك البلاد إلى هذا الزمان وهي متحكمة في الرجال، كما ذكر ابن كثير وغيره. ومنها امرأة العزيز، امرأة العزيز يعني من هذا الصنف.

زوجها يعلم بمراودتها لعبدها يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومع ذلك لا يزيد على أن يقول له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف:٢٩]، وإلا لو كان صاحب غيرة مثل هذه ربما يعطيها السيف.

يذكرون: أن رجلًا يُقال له لقمان كانت له زوجة، فذهب لبعض قتاله وعشقها رجل، فأخبر قومه، فاحتالوا لإدخاله إلى قصر ذلك الأمير، فأتوا بحزمة سيوف كبيرة وربطوا بينها الرجل، وقبل ذهابه بقليل جاءوا إليه وقالوا هذه أمانة عندك، فذهب في شأنه.

ثم رجع بعد فترة، وأول ما دخل قالوا نريد الأمانة، فأخذوا سيوفهم وأخرجوها، والرجل مختبئ بين تلك السيوف حين دخل، وخبأته المرأة بين السيوف حين خرج، ثم بينما هو ينظر في سقف البيت رأى نخامة، فقال لها: "من أين هذه النخامة؟" قالت: "تنخمت". قال: "تنخمي هل تصل إلى ذلك المكان؟" فتنخمت فلم تصل إلى ذلك المكان. فقال: "أوديت من قبل السيوف"، ثم أخذ السيف وقتلها. فالشاهد أن عند الناس غيرة على محارمهم

وغيرة على شأنهم، وهؤلاء الذين تسلطت عليهم النساء، نساء الفراعنة ومن إليهم، يعني صار حالهن في هذا الحال الرديء. نسأل الله السلامة والعافية.

عند ذلك قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]. هذا سؤال يعني كبر وعناد، وإلا رب العالمين معروف، معروف عند البشرية لم ينكره إلا فرعون كبرًا وعنادًا، وبعض الاشتراكيين والشيوعيين الذين يقولون: "لا إله، والحياة مادة". فقال له: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء:٢٤] ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ۝٢٥ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:٢٦]. فقال فرعون مرة ثانية يعارض: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء:٢٨]. فبيَّن له وجلَّى صفات الله العظيمة.

قال فرعون عند ذلك: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ۝٢٩ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ شيء بيّن، ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٣١ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ حية تسعى.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝٣٣﴾ من غير مرض ولا برص.

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ من أين تعلم السحر وهو عاش في بيت فرعون؟ ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء:٣٥]. هذه استشارة كبعض المستشارين. فهذا الزمان يتخذوه مستشارًا هكذا فقط. وفرعون إنما يستشيرهم من باب التعمية، وإلا ما هو حولهم ولا سيأخذ بمشورتهم ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الشعراء:٣٦] أخّره وأخاه، لا تتعجل في قتلهم ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الشعراء:٣٦] يحشرون لك السحرة ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٣٧] ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:٣٨] يوم الزينة.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ۝٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝٤٠﴾ [الشعراء:٣٩ – ٤٠]. ما كان عندهم شك واحد في المئة أن ينتصر موسى، إنما عندهم الظن بنصر السحرة. فلما جاء السحرة قالوا لفرعون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الشعراء:٤١].

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء:٤٢]. سيجعلهم وزراء وأمراء. قال لهم موسى: ﴿أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وفرعون لا عزة له، والله لا عزة له، ذليل.

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يعني صارت حية حقيقية، الفرق بين ما صنعه السحرة لم يحوّلوها إلى حيات حقيقيات، بينما هذه حية حقيقية خلقها الله وأحياها الله. فأُلقي السحرة ساجدين لعلمهم أن موسى لم يسحرهم.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٩ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٤٧–٥٠] يعني لم يبالوا بما لحقهم من الصلب والقتل بعد علمهم بالحق الذي جاء به موسى ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٥١].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ﴾ يعني بعد أن انتصر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في هذه الحادثة، أراد فرعون المكر بهم واستئصال شَأْفَتِهِمْ. فأوحى الله إليه: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء:٥٢ – ٥٦] أدخلوا علينا الغيظ والغضب، من شرهم.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ [الشعراء:٥٧ - ٥٨] يعني أخرج الله فرعون.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:٥٩] أي بعد هلاك فرعون.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء:٦٠] أي قوم فرعون اتبعوا بني إسرائيل مشرقين.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء:٦١] جمع موسى وجمع فرعون.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء:٦١] إنهم قد أحاطوا بنا.

﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ **أزلفنا**: أي قربنا، قرب الله عَزَّوَجَلَّ قوم فرعون من قوم موسى.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أمر الله عَزَّوَجَلَّ موسى أن يضرب البحر، وقرب قوم فرعون حتى يكون كالإغراء كما فعل الله عَزَّوَجَلَّ يوم بدر. يوم بدر كفار قريش ينظرون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى أصحابه يرونهم قليل. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إلى كفار قريش ويراهم قليل. فلذلك أراد المسلمون أن يستأصلوا كفار قريش، وكفار قريش يقولون هم قليل نستأصلهم. ووقعت المعركة التي قُتل فيها سبعون وأُسر فيها سبعون.

وهذا قَرَّبَ الله عَزَّوَجَلَّ قوم فرعون من قوم موسى. لأنهم لو كانوا بعيدين ودخل بعضهم في البحر وارتطم عليهم لسلمت البقية. لكن قربهم حتى يأتيهم الطمع بأنهم سيقضوا على قوم موسى عن آخرهم. فلما ضرب موسى البحر وهو مجتمع مع أصحابه دخلوا فارين، وذاك مجتمع مع أصحابه دخلوا لاحقين على إِثْرِهِمْ مباشرة.

فعند ذلك البحر نزل عليهم جميعًا فأغرقهم ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء:٦٦] يعني ما أبقى منهم أحدًا، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ [الشعراء:٦٧ - ٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٨ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل:٧ - ١١].

بمعنى: أن الإنسان إذا كان معافى لا يتخوف من شيء، لكن إذا أصاب شيئًا من غير العافية تجد التخوف في حاله ومقاله. ومثاله في المثل اليمني: "الذي بطنه فاضي ما يخاف"، معناه أن الذي بطنه فيه شيء مما لا يجوز له يخاف. فعلى المسلم أن يحتاط لنفسه، وأن يكون بعيدًا عن أسباب الفتنة وأسباب الشر وأسباب الفساد والإفساد. بل عليه أن يكون مبادرًا لمرضات الله عَزَّوَجَلَّ، هذا هو الذي لا يخاف، كما قال تعالى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠]، لأن الله يدافع عن الذين آمنوا، إن الله لا يحب كل مختال فخور.

وقال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ۝١٢ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل:١٢ - ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ۝٥﴾ [إبراهيم:٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [إبراهيم:٦].

كل هذه من قصص موسى مع قومه.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣] دمر الله عليهم وأهلكهم

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ
إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥ قَالَ إِن كُنتَ
جِئۡتَ بِـَٔايَةٖ فَأۡتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٠٦﴾ [الأعراف:١٠٤ - ١٠٦] أي حجة ﴿فَأَلۡقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ۝١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن
قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ۝١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ
۝١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ۝١١٢ وَجَآءَ
ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ۝١١٣ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ
ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝١١٤ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ۝١١٥ قَالَ أَلۡقُواْۖ
فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ۝١١٦ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ۝١١٧ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ
۝١١٨ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝١١٩ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ۝١٢٠ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١٢٢ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ
هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝١٢٣ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ

وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٧ - ١٢٦].

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الأعراف:١٢٧] يتركك وآلهتك لا يعبدها ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف:١٢٧]. يستحيون نسائهم للعمل والمهنة، ليس معنى الآية أنهم يستحون من نسائهم أن يتعرضوا لهن، ولكنهم يبقوهن أحياء من أجل العمل والمهنة والفجور أيضًا.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾ [الأعراف:١٣٠ - ١٣١] يعني لا يضيفونها إلى الله يضيفونها لأنفسهم وأنهم أهل لها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٣١] يتشاءمون بموسى ومن معه من المؤمنين ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]. كل هذه الحجج سموها سحرًا، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف:١٣٤] هذا في حال خوفهم وفي حال ضعفهم، أما في حال قوتهم فلا يعرفون لموسى منزلة ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف:١٣٥] ما

جعلوه على أنفسهم من العقود والمواثيق ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٦-١٣٧] مكن الله لهم ودمدم على فرعون وعلى قومه.

وبعد هذا التمكين، ما الذي حصل منهم؟ ستعرف أنهم طلبوا عبادة العجل، تأملوها ورجوها.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ [الأعراف:١٣٨] أي: يُقيمون على عبادة هذه الأصنام ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف:١٣٨] يعني: نعبدهم، وإلَّا فهم يُقِرُّون بأنَّ اللهَ هو الخالقُ الرَّازقُ المالكُ المدبِّرُ ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨] التوحيدَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩]. والجهلُ هنا هو الطَّيشُ والإعراضُ ﴿قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:١٤٠].

﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ صغاركم، ﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾ للخدمة والامتهان ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾ [الأعراف:١٤١].

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ﴾ شهرًا، ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ استخلفه في بني إسرائيل يسوسهم ويرعاهم وينصحهم.

لأنَّ النَّاسَ لا يَصلُحون بدونِ رعاية؛ فالأسرةُ تحتاجُ إلى مَن يسوسُها، والقبيلةُ تحتاجُ إلى مَن يسوسُها، والفخيذة تحتاجُ إلى مَن يسوسُها، والمدينةُ تحتاجُ إلى مَن يسوسُها، والدَّولةُ تحتاجُ إلى مَن يسوسُها:

لا يَصلُحُ النَّاسُ فوضى لا سِراة لهم ولا سـراة، إذا جُهَّالُهم سـادوا

والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوةِ حُنَيْن يقول: «أَيْنَ عُرَفَاؤُكُمْ؟» [رواه مسلم برقم (١٧٧٨)] مع أنَّه سيِّدُهم وقائدُهم ورسولُهم وناصحُهم وموجِّهُهم، ومع ذلك احتاجوا إلى عُرَفاءَ يعودون إليهم فيما لم يَصِل به إلى الإمامِ الأعظم. وهكذا في كلِّ المسائل، لا بدَّ ممَّن يقومُ على شؤونِ النَّاسِ لرعايتِهم: داخلَ المسجد، داخلَ المدرسة، داخلَ البيت، داخلَ المُجمَّع، في المستشفى، في السُّوق، في جميعِ الشُّؤون.

والأمرُ الذي يليه: إذا وُجِدَ الرَّاعي يتعيَّنُ على الرَّعيَّةِ الإستماع لنصحه والاستفادةُ من توجيهِه والأخذُ بأمرِه، إلَّا فيما يُخالفُ الشَّرع. ومِن أعظمِ مَن يُقبَلُ نُصحُهم العلماءُ الذين يقومون على شأنِ الدَّعوة؛ فهم ينصحون لطلَّابِهم، وينصحون للمجتمعِ في المسائلِ العلميَّةِ والمسائلِ العمليَّة. ولا واللهِ يُفلِحُ طالبُ علمٍ لا يأخذُ بنصيحةِ شيخِه وتوجيهِه في مسائلَ علميَّةٍ أو عمليَّة. وقد رأينا هذا وخَبَرْناه وجربناه في طِيلةِ هذه الفترةِ الدعوية التي يسَّرَ اللهُ بها، ونسألُه الثَّباتَ عليها حتَّى نلقاه.

فينبغي لطالبِ العلمِ أن يستفيدَ من نصائحِ شيخِه وتوجيهاتِه، سواءً كان في المسائلِ العلميَّة، إلَّا أن يجدَ عِلمًا يدفعُ عِلمَه، وحُجَّةً تدفعُ حُجَّتَه. وهكذا في

المسائلِ العمليَّة، إذا نصحَه في شأنٍ من شؤونِ صلاحِ الحال، من شؤونِ صلاحِ المآل؛ فالإعراضُ عن سماعِ النَّصائحِ يُوجِبُ التَّمرُّدَ والفضائح. نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافية.

وبعضُ الآباءِ ينصحون لأبنائِهم ويوجهونهم ويدعون لهم ويُحسِنون إليهم، وتجدُ الابنَ يرى أنَّ أباه لا يُحسِنُ النَّصيحةَ وليس موفَّقًا لها. وكثيرٌ من طلَّابِ العلمِ تجدُ أنَّ شيخَهم ينصحُ لهم ويوجِّهُهم ويرفقُ بهم، فيظنُّون أنَّ الشَّيخَ لا يفهم، أو أنَّ الشَّيخَ له مقاصدُ أخرى من هذه النَّصيحة، فيُحرَمُون قبولَ النَّصيحةِ لهذا الشَّأن، فتُسلَبُ منهم البركاتُ العلميَّةُ والبركاتُ العمليَّة؛ لأنَّ العلمَ إنَّما يُستفادُ إذا باركَ اللهُ فيه، ولا يكون ذلك إلَّا بالأخذِ بسِيَرِ الأوَّلين السَّابقين الذين كانوا يُعظِّمون جانبَ العلمِ وجانبَ العلماء.

بعضُه تنصحه: "اطلُب العلم"، فيقول: "اللهُ أعلمُ ما قصدُه!" ويُقال له: "احضُر الدُّروس"، فيقول: "اللهُ أعلمُ ما قصدُه!" ويُقال له: "هذه المسألةُ حلُّها كذا"، فيقول: "اللهُ أعلمُ ما قصدُه!" فيبقى مُتشكِّكًا في شيخِه، مُتذبذِبًا في قبولِ نُصحِه. فأنى تكونَ لمثلِ هذا بركةٌ يستحالَ قَدَرًا وشرعًا! أن تكون لمثل هذا بركة، إنَّما البركةُ بالأخذ بالكتابِ والسُّنَّة: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام:٩٢]، ومِن الأخذِ بالكتابِ والسُّنَّةِ الأخذُ بنُصحِ العلماءِ فيما لا يُخالفُ الكتابَ والسُّنَّة، وإلا فكلٌّ يُؤخَذُ من قولِه ويُرَدُّ إلَّا رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ.

لكن إذا وجدتَ شيخَك خالف في نصحٍ وهو يُريدُ الخير؛ فالمجتهدُ له أجران إن أصاب، وله أجرٌ إن أخطأ.

فانظر إلى هذه المسألة: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين يُسافرُ ينصحُ هارونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ برعايةِ بني إسرائيلَ والعنايةِ بهم؛ لأنَّ تركَهم سيكونُ من أسبابِ فسادِهم. وقد قامَ هارونُ عليهم بما يُصلِحُ شأنَهم، ولكنَّهم تمرَّدوا عليه ولم يستجيبوا له، بل قال قائلُهم: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩١] في أمرٍ قد عُلِمَ ضلالُهم فيه.

وهذا المثلُ مثلٌ يتكرَّرُ في كلِّ زمنٍ وحين؛ فالفسادُ الذي نراه في الأخلاق، في العلوم، في الطُّرق، سببُه عدمُ قبولِ النَّصيحةِ من أهلِها: الفسادُ في المرأة لعدمِ قبولِها لنُصحِ زوجِها، والفسادُ في الأبناء لعدمِ قبولِهم لنُصحِ آبائِهم، والفسادُ إن وُجِدَ في الأب فلعدمِ قبولِه لنُصحِ مَن ينصحُه، والفسادُ في المجتمع لعدمِ قبولِه لنُصحِ النَّاصحين من العلماءِ والموجِّهين، والفسادُ في طلَّابِ العلمِ العلمي والعملي بسببِ عدمِ قبولِ نصائحِ العلماءِ والموجِّهين والنَّاصحين، والفسادُ في الحُكَّام لعدمِ قبولِ نصائحِ العلماءِ والأخذِ بها والسَّيرِ عليها، والفسادُ في المجتمعات لعدمِ الأخذِ بالكتابِ والسُّنَّة.

إذًا، الفسادُ الواقعُ في العالمِ كلِّه عائدٌ إلى عدمِ الأخذِ بالنَّصيحةِ والتَّوجيه، وإلَّا فإنَّ الرُّسلَ بُعِثوا بذلك: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨]، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩]. فنسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافية.

فعلى كلِّ واحدٍ منَّا أن يُعالجَ نفسَه. يا أخي، ما شُرِعَت الخُطبُ والمحاضراتُ وألفت الكتب، بل ما أنزلَ اللهُ الكتبَ وأرسلَ الرُّسلَ إلَّا لهذا المقصد: إصلاحُ النَّاس. لكن لماذا لم يَصلُحِ النَّاسُ جميعًا أو أكثرُهم، وفي كلِّ زمنٍ غالبيَّتُهم؟ لأنَّهم ما أخذوا بهذا المقصدِ العظيم.

نجدُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينصح الصَّحابةَ بحديثٍ لا يتجاوزونه، تنزلُ الآيةُ لا يتجاوزونها: «خُذْ مِنْ شَارِبِكَ» [رواه مسلم برقم (٢٥٧)]، ثمَّ أقر حتى تلقاني، فأخذَ من شاربِه حتَّى مات. بينما تجدُ الأبَ ينصحُ ولدَه اليوم: "يا بُنيَّ حافِظ على الصَّلاة، يا بُنيَّ أطِع أمك، يا بُنيَّ ارفُق بإخوانِك، يا بُنيَّ اطلُب العلم"، وبعدَ يومين ينسى! وهكذا طلَّابُ العلم: "يا بُنيَّ اطلُب العلمَ، اجتهِد، تستفيدُ وتُفيد، تميَّز على المُبطِلين، احرِص على نفعِ نفسِك"، ربَّما يسمعُ النَّصيحةَ الآن وبعدَ ساعةٍ ينساها، يحتاجُ نصيحةً أخرى.

ولذلك تجدُ النَّصائحَ تتكرَّرُ وتتكرَّرُ وتتكرَّر، ويا ليتَ أنها تتقرر! كان المتقدِّمون يقولون: "ما تكرَّرَ تقرَّر"، لكنَّ الآنَ تتكرَّرُ وتتكرَّرُ وتتكرَّر ولا تتقرر لماذا؟ لأنَّ المُستمِعَ غيرُ مُبالٍ بالنَّصيحةِ وغيرُ آخِذٍ بها. وإلا لو كان آخذا بها هي كلمة: "اتق الله" يتقي الله، "صل" يصلي، "أطلب علم" يطلب علم، "افعل كذا" يفعل كذا. كلمة واحدة. ولكن مع ذلك: كم تتكرَّرُ الخُطب! كم تتكرَّرُ المواعظ! كم نقرأُ في القرآنِ وتتكرَّرُ علينا الحُجج! كم نقرأُ في السُّنَّة ويتكرَّر علينا الحجج ولا نجدُ بركة! وسببُها ما تقدَّم.

فعلينا أن نُعظِّمَ أمرَ اللهِ وأمرَ رسولِه ﷺ، وعلينا أن نأخذَ بتوجيهاتِ علمائِنا، وبتوجيهاتِ آبائِنا وأمَّهاتِنا، وبجميعِ مَن يوجِّهُنا ما لم يُخالِف كتابًا أو سُنَّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣]
يعني: لمَّا أكرمَه اللهُ بالكلامِ ظن عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أنَّ شأنَ الرُّؤيةِ كالكلامِ يُمكنُ أن يتحقَّق.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣]، ولم يقُل: "لا أرى"؛ لأنَّ المبتدعةَ يقولون بأنَّ "لن" تُفيدُ التَّأبيد، حتَّى قال ابنُ مالك: "ومَن رأى النَّفيَ بـ(لن) مُؤبَّدًا فقولَه اردُد وسوى فأعضدا". فـ"لن" لا تُفيدُ التَّأبيدَ لا بأدلَّةٍ ولا بواقع؛ فقد يأتيكَ آتٍ وأنت جالسٌ في المسجدِ فيقول: قم معي، تقول "لن أقوم"، هل أفادت التَّأبيد؟! تصبح مصلب في موطنِك، لا تقوم. أو يقول: "اصطلِح مع أخيك"، فيقول: "لن أصطلِح"، هل المعنى أنَّه يُؤبد الخلاف؟ ودليلُه في القرآن: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ [يوسف:٨٠]، فلو كانت "لن" تُفيدُ التَّأبيدَ ما قيَّدَها بإذنِ أبيه. وكذلك: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم:٢٦]، فلو كانت "لن" تُفيدُ التَّأبيدَ ما قيَّدَتها باليوم.

ثمَّ هناك فرقٌ بين "لن تراني" و"لا تراني" أو "لا أُرى"، الأصوب أن نقول: "لا أُرى"؛ لأنَّ "لن تراني" ربَّما أيضًا تقيَّدُ بالحال. لكن لو كان اللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يرى لقال: "يا موسى إنِّي لا أُرى"، لكنَّه قال له: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣].

ثمَّ أيضًا هذه التي بعدها: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]. استقرارُ الجبلِ ممكنٌ أو غيرُ ممكن؟ ممكن. ثمَّ الجبلُ مخلوقٌ أو ليس بمخلوق؟ مخلوق. وقد تجلَّى اللهُ له كما في حديثِ أنس وأشار بالسبابة فقال: حميد لثابت ماهذا يا ثابت قال وما انت ياحميد وما انت ياحميد لقد حدثني أنس بن مالك أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال هكذا [**رواه الترمذي برقم (٣١٩٠) وحسنه**]. بغير تشبيه ولا تمثيل، فيه إثبات التجلي. فإذا كان اللهُ عَزَّوَجَلَّ قد تجلَّى لجبلٍ أصمَّ، فمِن بابِ أَوْلى أن يراه المؤمنون الموحِّدون المُخلِصون الطَّائعون المُخبِتون. وعلى هذا فاستدلالُ المعتزلةِ بهذه الآيةِ على نفيِ الرُّؤيةِ استدلالٌ غيرُ مستقيمٍ لا لفظًا ولا معنًى.

ونقولُ لهم: هَبُوا أنَّ هذه الآيةَ من المُشكِلات، أليست هناك آياتٌ بيِّناتٌ واضحاتٌ تدلُّ على أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُرى رؤيةً حقيقيَّة؟ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة:٢٢ - ٢٣]، والنَّظرُ عُدِّيَ بـ"إلى" فأفادَ نظرَ العين. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المطففين:٣٥]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥]، وقد فُسِّرَ المزيدُ بالنَّظرِ إلى وجهِ الله. لكن إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣] بأنَّه يُرى يومَ القيامة. الحمدُ لله، هذه عقيدةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة، وسينالونها بإذنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ في آخرتِهم. ومَن ردَّ مثلَ هذه العقيدةِ يُخشى عليه أن يُسلَبَها. فقد ذكرَ ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ ما مِن مُكذِّبٍ بكرامةٍ من الكرامات إلَّا وسُلِبَها، وما مِن مُستيقنٍ بكرامةٍ من الكرامات إلَّا أعطاه اللهُ إيَّاها بإذنِ الله.

عندَ ذلك قال اللهُ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ [الأعراف:١٤٤] أي: من التَّوراةِ والأحكام ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمةِ اللهِ عليك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] يعني: ممَّا يحتاجُه في دعوتِه ويحتاجُه في عبادتِه وطريقتِه ﴿مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾؛ لأنَّ التَّوراةَ كتابٌ فيه الأحكامُ وفيه بعضُ المواعظ، وإن كانت الأحكامُ أكثر. والإنجيلُ فيه المواعظُ وفيه بعضُ الأحكام. أمَّا القرآنُ فمَلِيءٌ بالأحكامِ والمواعظ.

﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥]، وكلُّها حسن، وإنَّما المرادُ خذ بها.

ثمَّ قال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن أسبابِ الصَّوارفِ عن الهدى ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٦] هذا من انتكاسِ الفِطَر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [الأعراف:١٤٦ - ١٤٧].

قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ [الأعراف:١٤٨ - ١٤٩] يعني: لمَّا عبدوه وفعلوا الفِعلةَ وأستيقنوا الضَّلالة.

وهكذا الشَّيطان، إنَّما يرتفعُ عنك بعدَ أن تقعَ في الحُفرة ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ [الأعراف:١٤٩ - ١٥٠].

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢

وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾ [الأعراف:١٥١ – ١٥٣].

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ [الأعراف:١٥٤] لأنَّه ألقى الألواحَ حين رأى ما صنعوا بعبادةِ العِجل.

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٥٥ – ١٥٦] أي رجعنا إليك ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٥–١٥٨] يعني: هذا عبارةٌ عن تتمَّةٍ لقولِه: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] بعضُهم مهتدون وبعضُهم فاسقون.

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ﴾ [الأعراف:١٦٠]. قال هنا: "انبجست"، وقال في البقرة: "انفجرت". قال العلماء: لمَّا كانت سورةُ الأعرافِ مكِّيَّةً قال: "انبجست"؛ لأنَّ الانبجاسَ بدءُ خروجِ الماء، ولمَّا كانت سورةُ البقرةِ مدنيَّةً ذكرَ الانفجارَ؛ أي: بعدَ خروجِ الماءِ بشدَّة. اثنتا عشرةَ عينًا قد عَلِمَ كلُّ أُناسٍ مَشربَهم.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ [الأعراف:١٦٠] من الشَّمس، من رحمةِ الله؛ الماءُ يخرجُ لهم من الحجر، لا يحتاجون إلى حفرِ آبارٍ ولا إجراءِ أنهار، والغمامُ يُغطِّيهم من الشَّمس، لا يحتاجون إلى ظلّ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾ الطَّعامُ يأتيهم من الله: المَنُّ مَثَلُ العسل، والسَّلوى الطائر السُّمَّانى، يأكلون لحمًا ويشربون عسلًا ونحوَ ذلك ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أبَوْا ذلك وطلبوا البقلَ والقِثَّاءَ والفُومَ والعدسَ والبصل!.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:١٦١] يعني: يدخلون بابَ بيتِ المقدسِ سُجَّدًا، فأبَوْا إلَّا أن يقولوا حبة في شعرة وألوا أن يقولوا "حِطَّة"، جعلوا يقولون "حِنطة"!.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦٢].

إلى غيرِ ذلك ممَّا ستراه من عنادِ بني إسرائيل. نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧﴾ [يونس:٧٥ - ٧٧]. كلُّ المُبطِلين يتَّهمون الأنبياءَ بالسِّحرِ والشَّعوذة.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾ [يونس:٧٨ - ٨٠] الثِّقةُ باللهِ والعلمُ بأنَّ النَّصرَ منه وحدَه.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ هذه قاعدةٌ عامَّة: الباطلُ سيُبطِلُه الله، وعملُ المفسدين لا يُصلِحُه الله. ولذلك أهلُ العلمِ يقولون: كلُّ القرآنِ آياتُ أحكام، سواءً ما يتعلَّقُ بالقصصِ أم بغيرِ ذلك. فهذه آيةٌ عامَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ أيُّ عملٍ: المشرك، لا يصلح الله عمله، المبتدع، العاصي، النَّمَّام، المغتاب، آكلُ الرِّبا، أصحابُ التَّزوير، أصحابُ الإفسادِ بين النَّاس؛ كلُّهم لا يُصلِحُ اللهُ لهم عملًا.

قال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨٢ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾ [يونس:٨٢- ٨٦] تحضيضٌ على اللُّجوءِ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في حالِ الشَّدائدِ والالتزامِ لذلك.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ذهبًا وفضَّةً، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ وكنوزًا وأموالًا ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨]. فأستجاب الله دعوتَهما، مع أنَّ الدَّاعيَ واحد، لكن لمَّا كان المؤمِّنُ معه سُمِّيت دعوتَهما جميعًا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ﴾ [يونس:٩٠] يعني: مجاوزةً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ما وفَّقَه اللهُ أن يقول: "آمنتُ بالله"! وهكذا هم أهلُ الباطل، لا يُوفَّقون حتَّى للكلمةِ اليسيرة. وكلمةُ "آمنتُ بالله" أسهلُ من كلمة "آمنتُ بالذي آمنت به بنو إسرائيلَ وأنا من المسلمين"، جملةٌ طويلةٌ عريضة. وربَّما لو وفِّقَ لقال "لا إلهَ إلَّا الله"، أو "آمنتُ بالله"، أو "أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا الله"، لكنَّ التَّوفيقَ عزيز، إنَّما يُوفِّقُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَن عَلِمَه أهلًا للهدايةِ والتَّوفيق.

يذكرون عن سيِّد قطب -واللهُ أعلمُ هل ثبتت عنه أم لا، ما أدري- أنَّه قيل له: "قُل لا إلهَ إلَّا الله". جعل يقول لهم وهل أقتل إلا فيها حين أرادوا أن يطبقوا عليه الإعدام. إن كان ثبت فهذا ما هو توفيق. الإنسانُ ينبغي أن يتواضع؛ إذا قيل له: "قُل لا إلهَ إلَّا الله" عندَ موتِه يقول: "لا إلهَ إلَّا الله"، وحتَّى في غيرِ موتِه. لكن ذلك عندَ الموت: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ» [رواه أبو داود برقم (٣١١٦)، والحاكم برقم (١٨٦٥) وصححه].

﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] عصى في الشِّركِ والقتلِ والفساد ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس:٩٢]. كثيرٌ من النَّاسِ يزعمون أنَّ هذه الجُثث المُحنَّطةَ للفراعنةِ هي معنى هذه الآية، وأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ جعلَ جُثَّةَ فرعونَ وأبقاها آية. هذا فهمٌ غيرُ صحيح. إنَّما في ذلك اليومِ كان الأقباطُ يزعمون أنَّ فرعونَ ربُّهم، فلو أنَّه ماتَ وأخذَه البحرُ لدخلت عليهم شُبهة: لعلَّه ارتفعَ إلى السَّماء، لعلَّه ذهبَ إلى مكانٍ آخر، لعلَّه كذا وكذا؛ لاعتقادِهم العظيم فيه. لكن سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ! بل أيضًا بنو إسرائيلَ عندَهم غفلة -لا يعلمها إلَّا اللهُ إلَّا مَن رحمَ الله- لربَّما قالوا لموسى: "يا موسى إنَّه ذهبَ لميقاتٍ أو فعلَ كذا أو كذا". فأظهرَ اللهُ ضعفَه وذلَّته بأن ألقاه على مكانٍ يراه الذَّاهبُ والآيب، ليكونَ آيةً وعبرةً للمتكبِّرين والمتجبرين والعتاه ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [يونس:٩٢ - ٩٣] المَنَّ والسَّلوى ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس:٩٣].

وفرعونُ كان متجبِّرًا متغطرِسًا كذَّابًا نصَّابًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ [الزخرف:٥١ - ٥٢] يقصدُ موسى، كانت عنده لُثغةٌ في لسانه ﴿فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف:٥٣] لأنَّ هؤلاء لا يُؤمنون إلَّا بالذَّهب، لا يُؤمنون إلَّا بالأموالِ والرِّفعةِ الدُّنيويَّة ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣].

﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤] دعاهم إلى عبادتِه فاستجابوا، دعاهم إلى السِّحرِ فاستجابوا.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أغضبونا ﴿ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف:٥٥ - ٥٦].

وهذا قولُه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ يستدلُّ به أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ في الرَّدِّ على المعتزلةِ ومَن إليهم؛ لأنَّ المعتزلةَ ومَن إليهم يُفسِّرون الغضبَ بالانتقام. وهنا فرَّقَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بين الغضبِ وبين لازمِه وهو الانتقام. فقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾؛ كيف "لمَّا" -وهو الغضبُ الشَّديد- "انتقمنا منهم"؟ ولو كان الغضبُ بمعنى الانتقامِ لكان المعنى: "فلمَّا انتقمنا منهم انتقمنا منهم"! وأيضًا لما أغضبونا أغضبونا وهذا معنًى فاسدٌ يُنزَّهُ عنه الكلامُ العظيمُ الذي هو كلامُ الرَّبِّ الكريمِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمَّ إنَّ الأسفَ ينقسمُ إلى قسمين: أسفٌ بمعنى الحُزن -وهذا يُنزَّهُ اللهُ عنه- كقولِه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٤]، وأسفٌ بمعنى الانتقام كقولِه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، وكقولِه: ﴿رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف:١٥٠]؛ يعني: غضبًا عليهم وعلى أفعالِهم، وربَّما فسرت أيضا بالحزين. لكن في حقِّ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لا يُثبَتُ له صفةُ الحُزن، وإنَّما أُثبِتَ له صفةُ الغضب، غضبٌ يليقُ بجلالِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النازعات:٢٠] أي: أرى اللهُ عَزَّوَجَلَّ فرعونَ الآيةَ الكبرى، وهي العصا التي تحوَّلت إلى حيَّة، وكذلك اليدُ تخرجُ بيضاءَ من غيرِ سوء ﴿فَكَذَّبَ

﴿وَعَصَىٰ ٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ٢٣﴾ [النازعات:٢١ - ٢٣] يعني: حشرَ بني إسرائيلَ والأقباطَ وجمعَهم ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ٢٥﴾ [النازعات:٢٤ - ٢٥] يعني: نكل به ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات:٢٦].

وهذه مناظرةٌ ذكرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ فيما وقعَ بين فرعونَ وبين مؤمنِ بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣٣ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ٣٤ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ٣٥﴾ [غافر:٣٠ - ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ٩٨ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ٩٩﴾ [هود:٩٦ - ٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر:٣٦ - ٣٧] يعني: دليلٌ على أنَّ موسى أخبرَ أنَّ اللهَ في السَّماء، وهذا أمرٌ تتابعت عليه الرُّسلُ ونزلت به الكتب. حتَّى الأطفالُ، الذي يخرجُ من بطنِ أمِّه ويكبرُ قليلًا قبلَ أن يُعلَّمَ أيَّ تعليم، إن قلتَ له: "أين الله؟" يُشيرُ إلى السَّماء. ويذكرون أنَّ حين وقوعِ الزَّلازلِ أنَّ الخيلَ والدَّوابَّ ترفعُ رأسَها إلى السَّماء. وهكذا ضَّرورةِ القلبُ تجدُه متعلِّقًا

بأنَّ الفرجَ يأتي من السماء، وهذا دليلٌ على أنَّ اللهَ في العُلوّ ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَاۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٤٠﴾ [غافر:٣٧-٤٠] إلى آخرِ ما ذكر.

والمقصودُ أنَّ اللهَ تعالى لم يُهلِكْهم إلَّا بعدَ إقامةِ الحُججِ عليهم، وإرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإزاحةِ الشُّبهةِ عنهم، وأخذِ الحُجَّةِ عليهم؛ ترهيبًا تارةً وترغيبًا أخرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝١٣٠ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣١ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ۝١٣٣﴾ [الأعراف:١٣٠ - ١٣٣]. والآياتُ والنُّذرُ لا تنفعُ قومًا لا يُؤمنون. إذا أرادَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الهدايةَ يسَّرَها للعبد، وإذا أرادَ له الضَّلالةَ ما تنفعُ فيه آية.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا

فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ
مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ
ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ
مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان:١٧ - ٣٣].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قرأ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣]، قال حمَّاد: هكذا، وأمسكَ سليمانُ بطرفِ إبهامِه على أنملةِ إصبعِه اليُمنى، قال: فساخَ الجبلُ وخرَّ موسى صَعِقًا [أخرجه الترمذي برقم (٣٠٥٦)].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قَدِمَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينةَ واليهودُ تصومُ يومَ عاشوراء، فقال: «مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَ؟» فقالوا: هذا يومٌ أظهرَ اللهُ فيه موسى على فرعون. فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِه: «أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوهُ» [رواه البخاري برقم (٣٩٤٣)، ومسلم برقم (١١٣٠)].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا، يُحِبُّ السَّتْرَ، لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ». فآذاه مَن آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستترُ هذا التَّسترَ إلَّا من عيبٍ بجلدِه؛ إمَّا بَرَصٌ وإمَّا أُدْرَةٌ -يعني: كانوا ينظرون إلى فروج بعضِهم- وإمَّا آفة. وإنَّ اللهَ أرادَ أن يُبرِّئَه ممَّا قالوا لموسى، فخلا يومًا وحدَه فوضعَ ثيابَه على الحجرِ ثمَّ اغتسل، فلمَّا فرغَ أقبلَ إلى ثيابِه ليأخذَها، وإنَّ الحجرَ عدا بثوبِه، فأخذَ موسى عصاه وطلبَ الحجر، فجعلَ يقول: ثوبي حَجَر! ثوبي حَجَر! حتَّى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل، فرأَوه عُريانًا أحسنَ ما خلقَ الله، وأبرأَه ممَّا يقولون. وقامَ الحجرُ فأخذَ ثوبَه فلبسَه، وطَفِقَ بالحجرِ ضربًا بعصاه. فواللهِ إنَّ بالحجرِ لَنَدَبًا من أثرِ ضربِه ثلاثًا أو أربعًا أو

خمسًا. فذلك قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب:٦٩] [رواه البخاري برقم (٣٤٠٤)، ومسلم برقم (٣٣٩)].

وعن عبدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لمَّا كان يومُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُناسًا في القِسمة، فأعطى الأقرعَ بنَ حابسٍ مئةً من الإبل، وأعطى عُيينَةَ مثلَ ذلك، وأعطى أُناسًا من أشرافِ العربِ فآثَرهم يومئذٍ في القِسمة. قال رجل: واللهِ إنَّ هذه القِسمةَ ما عُدِلَ فيها وما أُريدَ بها وجهُ الله. فقلتُ: واللهِ لأُخبِرنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتيتُه فأخبرتُه، فقال: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟ رَحِمَ اللهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» [رواه البخاري برقم (٣١٥٠)، ومسلم برقم (١٠٦٢)].

وهناك أحاديثُ أخرى، لكن نذكرُ منها الصَّحيحَ الثَّابتَ فيما يكونُ من شأنِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ [الكهف:٦٠] وهو موسى وفتاه يُوشَعُ بنُ نُون ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا ٦١﴾ [الكهف:٦٠ - ٦١] يعني: جعلَ طريقًا ظاهرًا في البحر ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا ٦٢ قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ٦٣﴾ [الكهف:٦٢ - ٦٣] أي: تعجَّبَ من الحوت الميِّت يرجعُ حيًّا ويسير ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا﴾ [الكهف:٦٤] أي: يقُصَّان الأثر.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ٦٦﴾ [الكهف:٦٥ - ٦٦] تواضعٌ وطلبُ العلمِ من الفاضلِ عندَ المفضول ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ

عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف:٦٧ - ٦٨] يعني: ما لم تعلمْ به ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف:٦٩ - ٧٠].

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف:٧١] شيئًا عظيمًا ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ [الكهف:٧٢ - ٧٣] لأنَّ موسى لا يعلمُ السَّببَ الذي من أجلِه خرقَ السَّفينة، وإذا عُلِمَ السَّببُ بطلَ العجب، لكنَّ الإنسانَ إذا لم يكن يعلمُ السَّببَ ويرى أمورًا خارجةً عن العادةِ سيتأثَّر ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف:٧٤ - ٧٦].

فالأمورُ مُغيَّبةٌ عن العباد، لو كان العبادُ يعلمون الحِكَمَ والمصالحَ فيما يجري عليهم: لما سخطوا شيئًا حين يقع، حين يموتُ ولدُك، كم فيها من المصالح، حين تنكسرُ رِجلُك، كم فيها من المصالح، حين يقل مالُك، كم في ذلك من مصالح، حين يكثرُ مالُك كم فيه من المصالح! الشاهد أنَّ العالمَ وما فيه يمضي على مقتضى حكمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. إلَّا أنَّ هذه ثلاثةُ أمورٍ ذكرَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ لنا وذكرَ ما يتعلَّقُ فيها من الحِكَم، وإلَّا فكم هي الأمورُ التي فيها المصالحُ العظيمة والعظيمة والعظيمة. ولذلك ينبغي للمسلمِ أن يرضى بقضاءِ الله؛ لأنَّ فيه مصالحَ هو يجهلُها، وأمورًا لو عَلِمَ الحكمةَ منها وما يأتي بعدَها لقال: "الحمدُ لله".

وربَّما بعضُ الأمورِ ما تعلمُ أنَّ فيها مصلحةً إلَّا بعدَ ذهابِها بأشهرٍ أو سنوات، وبعضُها قد لا تعلمُ مصلحتَها إلَّا يومَ القيامةِ حين ترى ما قد أعدَّ اللهُ من الثَّوابِ عليها، أو ما صرفَها عنك من الذُّنوبِ بسببِها. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

لمَّا خرجنا من دمَّاج كنَّا نتألم نشعرُ بالحُرقةِ على أنَّ خرجنا من بلدٍ قد ارتحنا فيه واطمأنَنَّا فيه واستوطنَّاه، زِد على ذلك ما فيه من خيرِ الدُّنيا؛ مثلُ توفُّرِ المياه، والأمن، والمشاربِ والمآكلِ مع رُخصٍ. يعني سلَّةُ الطَّماطمِ أحيانًا نشتريها بمئةِ ريال، والبطاطا ربَّما نشتريها بخمسمئةِ ريال، وأمَّا العنبُ فاختَر منه ما شئتَ بأرخصِ الأثمان، وربَّما جاءت الأعناب بدون مال ... المهمُّ شيءٌ عجيب. تألَّمنا وشعرنا أنَّنا حصلت لنا نكبة، وفعلًا بالنِّسبةِ لنا نكبة، لكن لمَّا في علمِ اللهِ كانت بعدَ ذلك فيها من المصالحِ ما اللهُ به عليم.

واللهِ لو بقينا فيها لكانَ الإنسانُ يتمنَّى الآنَ الخروجَ منها، وربَّما ما يجدُ له طريقًا ولا يستطيعُ أن يتهرَّبَ ويتحكَّمُ به الحوثيُّون -غضب اللهُ عليهم-. يعني ربَّما في خُطَبِهِ، في محاضراتِه، في دروسِه، بل ربَّما يُلجئونك إلى الكلامِ في مسيرتِهم مالا ترضاه ولا تعتقدُه، فكان خروجُنا رحمةً ومِنَّةً ونعمة، لكن متى عَلِمنا ذلك؟ بعدَ أن رأينا الأحداثَ التي حصلت، فهكذا كثيرٌ من الأمورِ تحدثُ والإنسان لا يدري ما بعدَها، ويتألَّمُ ويتحسَّر، واللهُ أعلمُ أنَّ اللهَ رحمَه، مثلًا أو دفعَ عنه شرًّا، أو حفظَه من مكروه، أو رفعَه بها درجة. فما أعظمَ الرِّضا بالقضاء، والإيمانَ بأنَّ للهِ حكمةً في كلِّ ما يقعُ في هذا العالم!

انظروا إلى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كان إذا أمرني بشيءٍ فلم أقُم به قال: «لَوْ قُدِّرَ كَانَ»". ولا يقول: "لماذا ما خرجت؟ لماذا تأخَّرت؟ أنت لعلَّك فعلت!" لا. "لو قُدِّرَ كان فلا إلهَ إلَّا الله". هل كان يعلمُ هؤلاء أصحابُ السَّفينةِ أنَّ في خرقِ السَّفينةِ سلامةً لهم؟ أبدًا هم لا يعلمون! ربما يأتي بعضهم متحسرين يقولوا اللهُ المستعان. نحملُ الخَضِرُ معنا ويفعلُ هذا الفعل، مثله ما يفعلُ هذه الأفعالَ، تفعلُ الجميلَ ويُرَدُّ عليك بهذا الأمر! ثمَّ يعلمون. هل كانت المرأةُ تعلمُ أنَّ ولدَها قُتِلَ لمصلحتِها؟ لا تعلم! ربَّما تبكي وتنوحُ عليه، وربَّما دعت على مَن قتلَه، وبقيت متحسِّرةً متندِّمة، بعد أن أبدلَها اللهُ، لا تعلمُ أنَّ هذا أبدلَها اللهُ خيرًا من الأوَّل.

كثيرٌ من المصالحِ النَّاسُ لا يعلمونها، وإذا عَلِموها لا يكونُ عندَهم العلمُ اليقينيُّ في عظيمِ بركتِها وعظيمِ مصلحتِها. ولذلك الأمورُ إلى الله، ما أجملَ وما أحسنَ أن نُؤمنَ بقضاءِ اللهِ ونرضى به، وتعلمَ أنَّ ما أصابَك لم يكن ليُخطِئَك، وما أخطأَك لم يكن ليُصيبَك.

والفائدةُ من قراءةِ قصصِ الأنبياءِ وغيرِ ذلك من القصصِ للعِظةِ والعِبرة.

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ٧٧ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا

كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾ [الكهف:٧٧ - ٨٢].

قال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدَّثنا الحُمَيديُّ، قال: حدَّثنا سفيان، قال: حدَّثنا عمرُو بنُ دينار، قال: أخبرني سعيدُ بنُ جُبَير، قال: قلتُ لابنِ عبَّاس: إنَّ نوفًا البِكاليَّ يزعمُ أنَّ موسى صاحبَ الخَضِرِ ليس هو موسى صاحبَ بني إسرائيل. فقال ابنُ عبَّاس: كذبَ عدوُّ الله -وهذا ليس تكفيرًا له، وإنَّما يعني: أخطأ-. حدَّثنا أُبيُّ بنُ كعب أنَّه سمعَ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِنَّ مُوسَى هَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا. فَعَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ فَكَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمَّ. فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكْتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَتَاهُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ، حَتَّى إِذَا أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَضَعَا رُؤُوسَهُمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ الَّذِي فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللهُ عَنْ الْحُوتِ جِرْيَانَ الْمَاءِ -يعني: الأَثرُ ظاهر- فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلَ الطَّاقِ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبُهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَانْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ الْغَدِ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدۡ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبٗا﴾. قَالَ: وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى النَّصَبَ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أَمَرَهُ اللهُ بِهِ. فَقَالَ لَهُ فَتَاهُ: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا ﴿٦٣﴾﴾» [رواه البخاري برقم (٣٤٠١)].

قَالَ: فَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا، وَلِفَتَاهُ عَجَبًا.

فقال له موسى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ [الكهف:٦٤]. قال: فرجعا يقصَّان آثارَهما حتَّى انتهيا إلى الصَّخرة، فإذا رجلٌ مُسَجًّى بثوب، فسلَّمَ عليه موسى. قال الخَضِر: «وَأَنَّى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ!»؛ لأنَّ أصحابَ الإيمانِ قليل -. قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لتُعلِّمَني ممَّا عُلِّمتَ رُشدًا. قال: إنَّك لن تستطيعَ معيَ صبرًا، يا موسى إنِّي على علمٍ من علمِ اللهِ علَّمَنيه الله لا تعلمُه أنت، وأنت على علمٍ من علمِ اللهِ علَّمَكَه الله لا أعلمُه. فقال موسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٦٩﴾ [الكهف:٦٩]. عِلمُه من علمُ القَدَر، وموسى عِلمُه علمُ الأحكام.

قال الخَضِر: فإنِ اتَّبعتَني فلا تسألْني عن شيءٍ حتَّى أُحدِثَ لك منه ذِكرًا. فانطلقا يمشيان على ساحلِ البحر، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلمَّا ركبا في السَّفينةِ لم يَفجَأْ إلَّا والخَضِرُ قد قلعَ لوحًا من ألواحِ السَّفينةِ بالقَدُوم. فقال له موسى: قومٌ حملونا بغيرِ نَوْلٍ عمدتَ إلى سفينتِهم فخرقتها لتُغرِقَ أهلَها، لقد جئتَ شيئًا إمرًا! قال: ألم أقُل إنَّك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ قال: لا تؤاخذْني بما نسيتُ ولا تُرهِقْني من أمري عُسرًا. قال وقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَكَانَتِ الْأُولَى مِنْ مُوسَى نِسْيَانًا» قال: وجاءَ عصفورٌ فوقعَ على حرفِ السَّفينةِ فنقرَ في البحرِ نقرةً. فقال له الخَضِر: «مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ»

ثمَّ خرجا من السَّفينة، فبينما هما يمشيان على السَّاحلِ إذ أبصرَ الخَضِرُ غلامًا يلعبُ مع الغِلمان، فأخذَ الخَضِرُ رأسَه بيدِه فاقتلعَه بيدِه فقتلَه. فقال له موسى: أقتلتَ نفسًا زكيَّةً بغيرِ نفس! قال: ألم أقُل لك إنَّك لن تستطيعَ معيَ صبرًا؟ قال:

وهذه أشدُّ من الأولى. وإن سألتُك عن شيءٍ بعدَها فلا تُصاحِبْني قد بلغتَ من لدُنِّي عُذرًا. فانطلقا حتَّى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلَها فأبَوْا أن يُضيِّفوهما، فوجدا فيها جدارًا يُريدُ أن ينقضَّ -قال: مائل- فقامَ الخَضِرُ فأقامَه بيدِه. فقال موسى: قومٌ أتيناهم فلم يُطعِموناو لم يُضيِّفونا، قال لو شئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرًا! قال: هذا فراقُ بيني وبينِك، سأُنبِّئُك بتأويلِ ما لم تستطِع عليه صبرًا. إلى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف:٨٢].

فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَانَ صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا» [رواه البخاري برقم (٣٤٠١)، ومسلم برقم (٢٣٨٠)].

ثمَّ ذكرَ قصَّةَ قارونَ مع موسى. قال اللهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص:٧٦] يعني: كان له مالٌ كثير ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٧ - ٧٨] يعني: بأوجهِ المكاسب، أنا تاجرٌ بارع ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص:٧٨ - ٧٩] نظرةٌ دنيويَّة، نظرة حالية لا مآلية.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ٨٠ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ

بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٧٩ - ٨٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أُرْسِلَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ، **فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَرَجَعَ إِلَى رَبِّهِ** عَزَّوَجَلَّ» **يعني**: لطمَه حتَّى سقطت عينه -. فرجعَ إلى ربِّه عَزَّوَجَلَّ فقال: أرسلتَني إلى عبدٍ لا يُريدُ الموت. قال: ارجِع إليه فقُل له يضعُ يدَه على مَتنِ ثَور، فله بما غطَّت يدُه بكلِّ شَعرةٍ سَنة. قال: أيْ ربِّ، ثمَّ ماذا؟ يقول: يا ربِّ ثمَّ ماذا بعدَ هذه الحياةِ الطَّويلة؟ يعني: تصوَّر إذا ضربتَ بيدِك على مَتنِ ثور، لا سيَّما يدُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ربَّما كانت أوسعَ من أيدينا الآن، فلا شكَّ أنَّهم كانوا رجالًا عِظامًا، فكم سيكونُ تحتَها من الشَّعر! وبعدَ ذلك ماذا؟

قال: الموت. قال: أيْ ربِّ، ثمَّ ماذا؟ ثمَّ الموت.

قال: فالآن. فسألَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يُدنيَه من الأرضِ المقدَّسةِ رَمْيَةَ حَجَرٍ.

قال أبو هريرة: فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَلَوْ كُنْتُ ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ**» [رواه البخاري برقم (٣٤٠٧)، ومسلم برقم (٢٣٧٢)].

بهذا نكونُ قد انتهينا من مُهمَّاتِ ما يتعلَّقُ بقصَّةِ موسى بنِ عِمرانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلَّا فقصصُه كثيرة، ولو أرادَ الإنسانُ أن يستقصيَ ويتوسَّعَ لأطالَ المقام، لكنَّ الحمدَ للهِ استفدنا فائدةً عظيمة. وقصَّةُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يمكنُ أن تُقسَمَ إلى ثلاثةِ أقسام: قصَّتُه في المَهد، ثمَّ قصَّتُه في الفِرار، ثمَّ قصَّتُه في الرُّجوعِ ودعوةِ فرعونَ إلى توحيدِ الله. هذا من حيثُ بدءُ الدَّعوة. ثمَّ تُقسَمُ إلى قصَّةِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيلَ ومعاناتِه وما عالجَ وما شاهدَ من أذاهم وإتعابِهم، حتَّى قال النَّبيُّ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ» [رواه البخاري برقم (٣١٥٠)، ومسلم برقم (١٠٦٢)].

ومع ذلك أمَّتُه يدخلُ كثيرٌ منهم الجنَّة، وهم ثاني أمَّةٍ بعدَ أمَّةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في الحديث: أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا أُسرِيَ به وعُرِجَ به إلى السَّماءِ السَّابعة، بكى موسى. قيل: ما يُبكيك؟ قال: «أَبْكِي أَنَّ هَذَا الْغُلَامَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي» [رواه البخاري برقم (٣٣٩٧)، ومسلم برقم (١٦٤)]. وفي حديثِ ابنِ عبَّاس: «رَأَيْتُ سَوَادًا فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، قِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثُمَّ نَظَرْتُ سَوَادًا فَقِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» [رواه البخاري برقم (٦٥٤٧)، ومسلم برقم (٢٢٠)].

تمت قصة نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

هارونَ بنِ عِمرانَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

هارونُ بنُ عِمرانَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أخو موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تقدَّمَ شيءٌ من قصصِه مع بني إسرائيلَ في خبرِ أخيه موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرًا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه:٢٤-٣٦].

وفي هذه الآياتِ دلالةٌ عظيمةٌ على حاجةِ الدَّاعي إلى اللهِ إلى مَن يُعينُه ويُناصرُه؛ فالإنسانُ بمفردِه قد يُصيبُه المَلَلُ ويشعُرُ بالاستضعافِ، وربَّما ضاقَ صدرُه مع كثرةِ أعدائِه، ولهذا كانَ في مبدأِ دعوةِ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أن طلبَ مُناصِرًا ومُؤازِرًا.

وكان شأنُ هارونَ أنَّه وُلِدَ في السَّنةِ التي لا يُذبَحُ فيها فرعونُ الصِّغارَ؛ إذ إنَّ لفرعونَ مراحلَ: المرحلةُ الأولى قتلُ جميعِ الصِّغارِ، ثمَّ نظرَ إلى أنَّ أعدادَ بني إسرائيلَ تقلُّ، وهو يحتاجُ إلى الخِدمةِ وإلى غيرِ ذلك، فأمرَ بذبحِ مولودٍ وتركِ الآخَرِ. فكان هارونُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السَّنةِ التي لا يُذبَحُ فيها المواليدُ، وكان موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في السَّنةِ التي يُذبَحُ فيها المواليدُ. فسلَّمَ اللهُ هارونَ بما سلَّمَه مما علمتُم، وسلَّمَ موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بأن جعلَه يُربَّى في بيتِ فرعونَ.

وقد استخلَفَه موسى على بني إسرائيلَ حين ذهبَ لميقاتِ ربِّه، كما قال تعالى:

﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف:١٤٢].

فيه فضيلةُ الاستخلافِ؛ فالإنسانُ إذا سافرَ من بيتِه ربَّما احتاجَ أبناؤه في غيابِه، لا سيَّما إذا كان معه مَن يحتاجُ إلى رعايةٍ، وإذا سافرَ عمَّا هو تحتَ شأنِه كدارِ حديثٍ أو نحوِ ذلك، يحتاجُ إلى مَن يقومُ بالأمرِ بعدَه حتَّى لا يتفلَّتَ الأمرُ:

لا يَصلُحُ النَّاسُ فوضى لا سِراةَ لهم ... ولا سراةَ، إذا جُهَّالُهم سادوا

وعن سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنتَ منِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي» [رواه مسلم برقم (٢٤٠٤)].

بمعنى أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا استخلَفَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على المدينةِ حين أرادَ غزوةَ تبوكَ، سخِرَ منه المنافقون وقالوا: أبقاكَ مع النِّساءِ والخوالفِ، فلحِقَه عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسألُه الرُّفقةَ، فقال له: «أمَا ترضى أن تكونَ منِّي بمنزلةِ هارونَ من موسى؟»؛ بحيثُ إنَّ هارونَ استُخلِفَ حين ذهابِ موسى للميقاتِ، وكذلك أنا أستخلِفُك حين ذهبتُ لغزوِ الرُّومِ. ولأنَّ هذا الحديثَ قد استغلَّه الرَّافضةُ على تقديمِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أبي بكرٍ وعمرَ، ولا دلالةَ لهم فيه، وإنَّما التَّوجيهُ ما تقدَّمَ.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِي﴾ [طه:٩٠]؛ وذلك حين اتَّخذَ بنو إسرائيلَ العجلَ إلهًا يعبدونَه من دونِ اللهِ، وإنَّ ربَّكم الرَّحمنَ فاتَّبعوني في تركِ عبادةِ العجلِ وفي ملازمةِ

التَّوحيدِ، وأطيعوا أمري إذ إنَّ موسى قد أمرَكم بطاعتي وأمرَني بالإصلاحِ فيكم.
﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه:٩١].

فلمَّا رجعَ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٢-٩٤].

وأيضًا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٥٠]. وكانت وفاةُ هارونَ في زمنِ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنَّ هارونَ هو الأخُ الأكبرُ، واللهُ المستعانُ.

وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصافات:١١٤-١٢٢].

قصةُ نبيِّ اللهِ يُوشَعَ بنِ نُونٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

يُوشَعُ بنُ نُونٍ هو صاحبُ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في رحلتِه إلى الخَضِرِ، وقد ذكرَه اللهُ تعالى في القرآنِ غيرَ مُصرَّحٍ باسمِه في قصَّةِ الخضِرِ كما تقدَّم، من قولِه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف:٦٠]، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف:٦١]. وقدَّمنا ما ثبتَ في الصَّحيحِ من روايةِ أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنَّه يُوشَعُ بنُ نُونٍ.

وهو مُتَّفَقٌ على نبوَّتِه عند أهلِ الكتابِ؛ فإنَّ طائفةً منهم وهم "السَّامِرَةُ" لا يُقِرُّون بنبوَّةِ أحدٍ بعدَ موسى إلَّا يُوشَعَ بنَ نُونٍ؛ لأنَّه مُصرَّحٌ به في التَّوراةِ، ويكفُرون بما وراءَه، وهو الحقُّ مُصدِّقًا لِما معهم من ربِّهم، فعليهم لعائنُ اللهِ المتتابعةُ إلى يومِ القيامةِ.

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الشَّمسَ لم تُحبَس لبشرٍ إلَّا ليُوشَعَ لياليَ سارَ إلى بيتِ المقدسِ**» [رواه أحمد برقم (١٠٤٣٤)، وهو على شرطِ البخاريِّ].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**غزا نبيٌّ من الأنبياءِ، فقال لقومِه: لا يتبعْني رجلٌ قد ملكَ بُضْعَ امرأةٍ وهو يُريدُ أن يبنيَ بها ولمَّا يَبْنِ، ولا آخرُ قد بنى بُنيانًا ولم يرفعْ سقفَها، ولا آخرُ قد اشترى غنمًا أو خَلِفاتٍ وهو ينتظرُ أولادَها**».

قال: «فغزا، فدنا من القريةِ حين صلَّى العصرَ أو قريبًا من ذلك، فقال للشَّمس: أنتِ مأمورةٌ وأنا مأمورٌ، اللَّهمَّ احبِسْها عليَّ شيئًا. فحُبِسَت عليه حتَّى فتحَ اللهُ عليه».

قال: «فجمعوا ما غنموا، فجاءت النَّارُ لتأكلَه فأبَت أن تَطعَمَه، فقال: إنَّ فيكم غُلولًا، فليُبايِعْني من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ. فبايعوه، فلصِقَت يدُ رجلٍ بيدِه، فقال: فيكم الغُلولُ، فلتُبايِعْني قبيلتُك. فبايعَتْه قبيلتُه».

قال: «فلصِقَت بيدِه رجُلان أو ثلاثةٌ، فقال: فيكم الغُلولُ، أنتم غلَلْتُم. قال: فأخرجوا له مثلَ رأسِ بقرةٍ من ذهبٍ. قال: فوضعوه في المالِ وهو بالصَّعيدِ، فأقبلَت النَّارُ فأكلَتْه».

«فلم تحِلَّ الغنائمُ لأحدٍ من قبلِنا، وذلك بأنَّ اللهَ رأى ضعفَنا وعجزَنا فطيَّبَها لنا»

[رواه مسلم برقم (١٧٤٧) بنحوِه].

وهو الذي فتحَ بيتَ المقدسِ؛ لأنَّ بيتَ المقدسِ لم يُفتَح في عهدِ موسى، إذ ضربَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عليهم التِّيهَ، ثمَّ فتحَها اللهُ عَزَّوَجَلَّ على يدِ يُوشَعَ بنِ نُونٍ كما في الحديثِ، فالقريةُ التي أشارَ إليها هي بيتُ المقدسِ.

قصة نبي الله الخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

تقدَّمَ أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رحلَ إليه بطلبِ ما عنده من العلمِ، وقصَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ من خبرِهما في كتابِه العزيزِ في سورةِ الكهفِ. وقد اختُلِفَ في الخَضِرِ في اسمِه ونسبِه ونبوَّتِه، والصَّحيحُ أنَّه نبيٌّ لِما قصَّه اللهُ عَزَّوَجَلَّ في سورةِ الكهفِ.

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّما سُمِّيَ الخَضِرَ لأنَّه جلسَ على فَروةٍ بيضاءَ، فإذا هي تهتزُّ من خلفِه خضراءَ**» [رواه البخاري برقم (٣٤٠٢)].

ثمَّ قال عبدُ الرَّزَّاقِ: الفَروةُ: الحشيشُ الأبيضُ وما أشبهَه، يعني: الهشيمَ اليابسَ. قال أبو عمرَ: الفَروةُ: الأرضُ البيضاءُ التي لا نباتَ فيها. وقال غيرُه: والهشيمُ اليابسُ شبَّهَه بالفَروةِ، ومنه قيل لفَروةِ الرَّأسِ: جِلدةٌ بما عليها من الشَّعرِ.

وهنا تنبيهٌ: إنَّ جماهيرَ الصُّوفيَّةِ يعتقدون حياةَ الخَضِرِ الآنَ، وربَّما استغاثوا به من دونِ اللهِ، وربَّما جعلوا له من الأمورِ ما لم تثبُت في كتابٍ ولا سُنَّةٍ. والصَّحيحُ أنَّ الخَضِرَ قد ماتَ، والدَّليلُ على موتِه أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يبقَيَنَّ على ظهرِ الأرضِ ممَّن هو عليها اليومَ بعدَ مئةِ سنةٍ أحدٌ**» [رواه مسلم برقم (٢٥٣٧) بمعناه]. فلو قُدِّرَ أنَّه عاشَ إلى ذلك الزَّمانِ فسيموتُ في هذه المدَّةِ التي حدَّدَها النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. الأمرُ الثَّاني: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أخذَ ميثاقَ النَّبيِّينَ على نُصرةِ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم نعلمْ أنَّ من مُناصريه الخَضِرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا في حروبِه ولا في حالِ دعوتِه. فهذه دعوى لا دليلَ عليها، وإنَّما ذكرناها حتَّى لا يُغترَّ بها.

قصة نبي الله إلياسُ عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ

قال اللهُ تعالى بعدَ قصَّةِ موسى وهارونَ من سورةِ الصَّافَّاتِ: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٢٣ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٢٨ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ١٢٩ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾ [الصافات: ١٢٣-١٣٢].

قال علماءُ النَّسبِ: هو إلياسُ النَّشْبِيُّ، ويقالُ: ابنُ يَاسِينَ بن فِنحَاصَ بنِ العَيْزَارِ بنِ هارونَ. وقيل: إلياسُ بنُ عازرَ بنِ العَيْزَارِ بنِ هارونَ بنِ عِمرانَ، واللهُ أعلمُ.

قالوا: وكان إرسالُه إلى أهلِ بَعْلَبَكَّ بِدِمَشقَ، فدعاهم إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ أن يتركوا عبادةَ الصَّنَمِ الذي كانوا يُسمُّونه بَعْلًا. وقيل: كانت امرأةً اسمُها بَعْلٌ، واللهُ أعلمُ، والأوَّلُ أصحُّ. ولهذا قال لهم: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤ أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٢٥ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٢٦﴾. فكذَّبوه وخالفوه، وقيل: إنَّه هربَ منهم واختفى عنهم، واللهُ أعلمُ.

فصل

وقد ذكَرَ اللهُ جملةً من أنبياءِ بني إسرائيلَ من غيرِ تصريحٍ بأسمائهم، ذكَرَ منهم أهلُ العلمِ جماعةً منهم:

❁ حِزْقِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

ذكَرَ أهلُ العلمِ أنَّه المذكورُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة:٢٤٣].

وعن صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلَّى همَسَ شيئًا لا نفهمُه ولا يُخبِرُنا به. قال: «أَفَطِنتُمْ؟» قلنا: نعم. قال: «إنِّي ذكرتُ نبيًّا من الأنبياءِ أُعطِيَ جنودًا من قومِه، فقال: مَن يُكافِئُ هؤلاء؟ أو: مَن يقومُ لهؤلاء؟ أو غيرَها من الكلامِ. فأوحى اللهُ إليه أن اخْتَرْ لقومِك إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن أُسلِّطَ عليهم عدوًّا من غيرِهم، أو الجوعَ، أو الموتَ. فاستشارَ قومَه في ذلك، فقالوا: أنت نبيُّ اللهِ، نَكِلُ ذلك إليك، خِرْ لنا. فقامَ إلى الصَّلاةِ»، وكانوا إذا فَزِعوا فَزِعوا إلى الصَّلاةِ.

والصَّلاةُ شأنُها عظيمٌ، ترتاحُ بها القلوبُ، وتهدأُ بها النُّفوسُ، ويستخيرُ الإنسانُ ربَّه ويستشيرُه. انظروا إلى زينبَ بنتِ جحشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لمَّا خطبَها النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: حتَّى أُشاوِرَ ربِّي. فأكرمَها اللهُ بأن زوَّجَها إيَّاه، كرامةٌ عظيمةٌ! هكذا الإنسانُ إذا عزمَ على أمرٍ استخارَ اللهَ واستشارَ، وفي المَثَلِ: لا خابَ مَن

استخارَ، ولا ندمَ مَن استشارَ. فنحن عاجزون عن معرفةِ الخيرةِ لأنفسِنا في كثيرٍ من الشَّأنِ، لكن باللُّجوءِ إلى اللهِ والاستعانةِ به والاستغاثةِ عسى أن يأتيَ الفرجُ.

قال: «فصلَّى ما شاءَ اللهُ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ، أمَّا عدوٌّ من غيرِهم فلا، أو الجوعُ فلا -العدوُّ من غيرِهم ربَّما يستأصلُهم، والجوعُ ربَّما يستأصلُهم أكثرَ، يتسلَّطُ عليهم العدوُّ مع ضعفِهم- ولكنِ الموتُ. فسُلِّطَ عليهم الموتُ فماتَ منهم سبعونَ ألفًا». فهمسُ الذي ترَوْن أنِّي أقولُ: "اللَّهمَّ بك أُقاتِلُ، وبك أُصاوِلُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ" [رواه أحمد برقم (٢٣٢٣٥)].

❁ الْيَسَعُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وقد ذكرَه اللهُ تعالى مع الأنبياءِ في سورةِ الأنعامِ في قولِه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦]. وقال تعالى في سورةِ ص: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٨]. هذا الذي جاءنا عن اللهِ عَزَّوَجَلَّ فيه، فنؤمنُ بذلك ونكتفي، ولا نخوضُ فيما سوى ذلك.

❁ شَمْوِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ

ذكرَ أهلُ العلمِ أنَّه المقصودُ بقولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ

طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةً مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦-٢٤٨]؛ كان فقيرًا لكنْ حملَتْه الملائكةُ، آيةٌ يرَوْنَه يطيرُ في الهواءِ.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة:٢٤٩-٢٥١].

عن البراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا أصحابَ محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نتحدَّثُ أنَّ عِدَّةَ أصحابِ بدرٍ على عِدَّةِ أصحابِ طالوتَ الذين جاوزوا معه النَّهرَ، ولم يُجاوِزْ معه إلَّا بِضعةَ عشرَ وثلاثمائةِ مؤمنٍ [رواه البخاري برقم (٤٦٨٠)].

❁ عُزَيْرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]. وذُكِرَ أنَّه المرادُ بقولِ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة:٢٥٩]. قيل: إنَّ القريةَ هي بيتُ المقدسِ. ويذكرون عنه أنَّه هو الذي حفظَ التَّوراةَ بعدَ أن دَرَسَت، فلذلك عظَّموه وعبدوه، واللهُ المستعانُ.

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ: «فيُدعى اليهودُ، فيُقال لهم: مَن كنتم تعبدون؟ قالوا: كنَّا نعبدُ عُزَيرًا ابنَ اللهِ. فيُقال لهم: كذبتم، ما اتَّخذَ اللهُ من صاحبةٍ ولا ولدٍ. فماذا تبغون؟ فقالوا: عطِشنا ربَّنا فاسقِنا. فيُشارُ إلى النَّارِ، فكأنَّها سرابٌ يحطِمُ بعضُها بعضًا، فيتساقطون في النَّارِ» [رواه البخاري برقم (٤٧٧٤)، ومسلم برقم (١٨٢)].

نبيٌّ مُبهَمٌ: تقدَّمَ معنا حديث صُهَيْبٍ.

قصة نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ

داودُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذرِّيَّةِ يَعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ، عبدُ اللهِ ونبيُّه وخليفتُه في أرضِ بيتِ المقدسِ. قال اللهُ تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ:١٠]، أمرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الجبالَ أن تُرَجِّعَ في التسبيحِ معه، والطيرَ تسبحُ بتسبيحِه، وألَنَّا له الحديدَ، أي: صارَ الحديدُ في يدِه لَيِّنًا كالبلاستيكِ في يدِ غيرِه، بحيثُ يستطيعُ أن يُشَكِّلَ الحديدَ في صناعةِ الدُّروعِ وفي أيِّ صناعةٍ بسهولةٍ، ما يحتاجُ إلى نارٍ تُوقَدُ كما هو حالُ الحدَّادينَ.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي: دُروعًا، ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ أي: الأثقابِ التي يدخلُ فيها المساميرُ، ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ:١١].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: الدُّروعَ، ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ أي: القوةِ، ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ ذكروا أنه كان يحرسُه أكثرُ من سبعينَ ألفًا، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوةَ، ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:١٧-٢٠]، أي: حسنَ الخطابِ.

وقولُه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾، كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾، أي: سبِّحي معه. قال ابنُ

عبَّاسٍ ومجاهدٌ وغيرُ واحدٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾، أي: عندَ آخرِ النهارِ وأوَّلِه.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لقد أُعطيَ أبو موسى من مزاميرِ داودَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ» [علىٰ شرطِ مسلمٍ]. يعني أعطاه اللهُ صوتًا حَسَنًا كما أعطى داودَ صوتًا حَسَنًا في قراءةِ الزَّبورِ، وكان يقرؤُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مدَّةِ إسراجِ الدَّوابِّ، كان يسيرًا وكله عبارةٌ عن مواعظَ وأدعيةٍ ونحوِ ذلك.

عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُفِّفَ على داودَ القراءةُ، فكان يأمرُ بدابتِه فتُسرَجُ، فكان يقرأُ القرآنَ من قبلِ أن تُسرَجَ دابتُه، وكان لا يأكلُ إلا من عملِ يدِه» [رواه البخاري برقم (٣٤١٧)]. والمرادُ بالقرآنِ هاهنا الزَّبورُ الذي أنزله عليه وأوحاه إليه، وذكرُ روايةٍ أشبهَ أن يكونَ محفوظًا؛ فإنه كان ملكًا له أتباعٌ، فكان يقرأُ الزَّبورَ بمقدارِ ما تُسرَجُ الدابَّةُ.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص:٢١-٢٢]، يعني تسوَّروا المحرابَ: رَقَوْه بدونِ أن يدخلوا من الأبوابِ؛ لأنه كان له حرسٌ كثيرٌ، وكان له يومُ عيدٍ لا يدخلُ عليه أحدٌ فيه أو يتفرَّغُ فيه للعبادةِ، فإذا به يجدُ هؤلاء عنده، ففزِعَ منهم، يعني: كيف دخلتم؟ ما شأنكم؟ ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ أي: لا تتجاوزْ، ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي: مستقيمِه وإلى حُسنِه. ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ قيل: زوجةٌ، والذي يظهرُ أنها نعاجٌ على ظاهرِها، ﴿وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: أعطني نعجتَك أُضيفُها

إلى نعاجي فتصيرَ مئةً، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص:٢٣]، يعني: خَصْمَه وانتصرَ عليه في الخطابِ.

فكان ردُّ داودَ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص:٢٤]. قيل: هذا الغلطُ الذي وقع فيه داودُ أنه قضى قبلَ أن يسمعَ من الخَصْمِ. والمَثَلُ عند العربِ: إذا جاءك يشكو والدمُ يسيلُ من رأسِه فلا تستعجلْ، لعله قد قتلَ الآخَرَ. والعامَّةُ تقولُ: ضربني وبكى، وسبقني واشتكى. فمهما كانت الدعوى لا تتعجَّلْ في القضاءِ مهما كانت، حتى تطلعَ على البيِّناتِ وعلى نحوِ ذلك، «البيِّنةُ على المدَّعي واليمينُ على المدَّعى عليه». والمشكلةُ أنَّ كثيرًا منا ربَّما يسمعُ للسابقِ ويبني الأحكامَ على ما سمِعَ، والواقعُ ربَّما كان خلافَ ذلك.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤]، أي: أصحابُ العملِ. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ أي: استيقنَ داودُ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أي: بهذا الاختبارِ والابتلاءِ وبدخولِ هذين الخَصْمَيْنِ، ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص:٢٤-٢٥]، أي: حُسْنَ مَرْجِعٍ، والزُّلْفَى: القُرْبَةَ.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمروٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال لي رسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ» [رواه البخاري برقم (١١٣١)، ومسلم برقم (١١٥٩)].

وقد تقدَّمَ في ذكرِ الأحاديثِ الواردةِ في خلقِ آدمَ أنَّ اللهَ لمَّا استخرجَ ذريَّتَه من ظهرِه، فرأى فيهم الأنبياءَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ورأى فيهم رجلًا يَزْهَرُ، فقال: «أَيْ رَبِّ، مَنْ

هَذَا؟» قال: «هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ». قال: «أَيْ رَبِّ، كَمْ عُمُرُهُ؟» قال: «سِتُّونَ عَامًا». قال: «أَيْ رَبِّ، زِدْهُ فِي عُمُرِهِ، زِدْهُ فِي عُمُرِهِ». قال: «لَا إِلَّا أَنْ أَزِيدَهُ مِنْ عُمُرِكَ». وكان عمرُ آدمَ ألفَ سنةٍ، فزاده أربعينَ عامًا. فلمَّا انقضى عمرُ آدمَ جاءه ملكُ الموتِ فقال: «بَقِيَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً»، ونسيَ آدمُ ما كان وهَبَه لولده داودَ، فأتمَّها اللهُ لآدمَ ألفَ سنةٍ، ولداودَ مئةَ سنةٍ.

وكان من شأنِه أنه مُبارِزٌ شُجاعٌ، وكان من جيشِ طالوتَ الذين خرجوا معه. قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ﴾ [البقرة:٢٥١]. وجالوتُ هذا كان مَلِكَ الكافرينَ، شديدًا في بطشِه على المؤمنينَ.

قصة نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

سليمانُ بنُ داودَ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهو من ذرِّيَّةِ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الخليلِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦]. هذا بعدَ أن سألَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يأتيَه مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِه، فاستجابَ اللهُ له دعوتَه، وحقَّقَ اللهُ له رغبتَه، وذلك فضلُ اللهِ يُؤتيه من يشاءُ. ذبحَ الخيلَ لأنها شغلتْه عن عبادةِ اللهِ، فعوَّضه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالرِّيحِ يسيرُ عليها حيث شاءَ. «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ عَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ».

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝١٧ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٨﴾ [النمل:١٧-١٨]، لكثرتهم وقلةِ النملِ وضعفِها. ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩]. وهكذا ينبغي لكلِّ من استجدَّت له النعمةُ أن يذكرَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ عليها وأن يشكرَه على أن أسداها له، حتى لا تُسلَبَ.

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ [النمل:٢٠-٢١]. وهذا دليلٌ على حَزْمِه، وهكذا ينبغي للإنسانِ أن يكونَ في أسرتِه، وأن يكونَ في دارِه، وأن يكونَ ما تحتَ شأنِه أن يتفقدَ الجميعَ: الغائبَ والمُفرِّطَ، وأن يحرصَ على العنايةِ

بهم وعلى استقامتِهم وعلى ثباتِهم، فكثيرٌ لا يعرفون الخيرَ لأنفسِهم ولغيرِهم إلا مع الرعايةِ والنصحِ والتكرارِ والصبرِ.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [النمل:٢١]، فيه جوازُ العقوبةِ لمن يستحقُّها.

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل:٢٢-٢٣]، أوتِيَتْ من كلِّ ما يؤتاه الملوكُ.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٤-٢٦]، يعني: الشيءَ المخبوءَ.

﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [النمل:٢٧]، التَّثَبُّتُ.

﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ [النمل:٢٨].

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٢٩]، يدلُّ على رجاحةِ عقلِها.

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾ [النمل:٣٠-٣١]، فيه أنَّ الكتبَ تُفتتَحُ بالبسملةِ.

﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، يعني: حتى تقضوا وتحكموا.

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣﴾ [النمل:٣٣]، إن أردتِ الحربَ وإن أردتِ المسالمةَ.

﴿قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةًۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤]. وهذا هو الواقعُ، أنَّ الملِكَ اللاحقَ يُذِلُّ الذي قبله، وربَّما سجنهم وسجنَ الوزراءَ وسجنَ الحاشيةَ، أشياءُ كثيرةٌ تقع إذا أخذها عنوةً، وكذلك يفعلون. قيل بأن هذا من قولِها، وقيل من قولِ اللهِ.

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥]، اختبارٌ: هل هم من أهلِ الدنيا أم من أهلِ الآخرةِ؟

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ٣٦ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ [النمل:٣٦-٣٧].

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]. قال عفريتٌ من الجنِّ ممن سخَّرهم اللهُ له: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل:٣٩]، قويٌّ على حمله، أمينٌ على ما فيه. ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ [النمل:٤٠]. قيل: عنده الاسمُ الأعظمُ. أما القولُ بأنه ساحرٌ، هذا قولٌ بعيدٌ، ما كان لرسولٍ أن يستعينَ بالسحرةِ والمشعوذينَ والكهنةِ والعرَّافينَ، هؤلاء حقُّهم القتلُ من وليِّ الأمرِ، هؤلاء كفرةٌ فجرةٌ. كيف يكونُ مجالسًا لسليمانَ النبيِّ الكريمِ عليه وعلى نبينا ﷺ أزكى التسليم؟ ولكن هذا من قولِ اليهودِ ومَن إليهم الذين يزعمون أن سليمانَ كان ساحرًا، وقد برَّأه اللهُ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ [البقرة:١٠٢]. قيل: قبلَ أن تنظرَ إلى بعيدٍ وتَرجعَ، يرجعُ الطرفُ، وقيل غيرُ ذلك.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ۝ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٤١]، يعني: من أصحابِ العقولِ.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾ [النمل:٤٢]، ما قالت: هو، لأنها تركتْ عرشَها في مأربَ في بلادِ سبأٍ. ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ۝ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ﴾ تحته ماءٌ وفيه قواريرُ زجاجٍ. قال بعضُهم: إنما أراد سليمانُ أن ينظرَ إلى ساقِها، أو أن في ساقَيْها شعرًا، فأدخلَها في مكانٍ فيه نُورةٌ. هذا كلامٌ باطلٌ أصلًا، لا يثبتُ أن سليمانَ تزوَّجَها. الذي جاء في التاريخِ أن سليمانَ أمرَها بالزواجِ ثم زوَّجَها -على قيل- من أقيالِ اليمنِ، من أقيالِ صنعاءَ ومَن إليهم. وأما الحبشةُ فيزعمون أنها منهم، وأنه تزوَّجَها وأنجبتْ له طفلينِ صار منهم نسلُ سليمانَ في تلك البلادِ. فظاهرُ القرآنِ وظاهرُ التاريخِ الذي يتناقله الناسُ أن سبًا في اليمنِ، ولا يبعدُ أن تكونَ الدولةُ السبئيةُ قد امتدَّت إلى الحبشةِ وإلى هذه البلدانِ لأنها متصلةٌ، والإمبراطورياتُ كانت تتوسعُ. واليمنُ في يومٍ من الأيامِ كانت إمبراطوريتُها في المشرقِ والمغربِ، غزا تُبَّعٌ العالَمَ، وغزا كذلك ذو القرنينِ العالَمَ. وما وُجِدَ عندهم مثلًا من هذه الآثارِ والنُّحوتِ التي فيها الخطُّ المُسنَدُ على القولِ الذي تقدَّمَ، لأنها كانت دولةً واحدةً يحكمُها اليمنيونَ، كما حكمَ الأحباشُ في زمنِ أبرهةَ اليمنَ وما إليها. وقد غزا كثيرٌ من اليمنيينَ الحبشةَ، حتى من المتأخرينَ منهم الجبرتيُّ، ولعله من صوفيةِ زبيدٍ كان حاكمًا وغازيًا، وغزا الحبشةَ وتملَّكَ عليهم.

الشاهدُ: أن هذه المرأةَ التي تُسمَّى عند أهلِ التاريخِ ببلقيسَ، ولم يثبتْ في اسمها شيءٌ عن معصومٍ، كانت من اليمنِ، وهاجرتْ إلى سليمانَ وآمنتْ به، وزوَّجها بعد ذلك رجلًا من اليمنِ. ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل:٤٤].

قال تعالى في سورةِ ص: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ [ص:٣٠-٣١]، الخيلُ عُرضت عليه بعد العصرِ، فشُغِلَ عن صلاةِ العصرِ. ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص:٣٢]، أي: الشمسُ غربتْ.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ أي: الخيلَ. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٣]، قتلَها.

وقال بعضُهم: إنما مسحَ على أعناقِها، وهذا قولٌ باطلٌ، فهي قد شغلتْه عن صلاةِ العصرِ، فأراد أن يتخلَّصَ مما شُغِلَ به عن طاعةِ اللهِ.

ولما عقرَها غضبًا للهِ، عوَّضه اللهُ عَزَّوَجَلَّ بالرِّيحِ تحمله حيث شاءَ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، شيطانًا، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص:٣٤].

يذكرون أنه أضاعَ خاتَمه، فأخذه الجنيُّ وجلسَ على كرسيِّه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ جمعَ اللهُ له بين الملكِ والرسالةِ، والنبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيَّره اللهُ أن يكونَ ملكًا رسولًا، فاختار أن يكونَ عبدًا رسولًا.

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧﴾ [ص:٣٦-٣٧]، سخَّر له أيضًا الشياطينَ، منهم من يبني البنيانَ الكبيرةَ، ومنهم من يغوصُ في البحارِ فيأتيه باللؤلؤِ والمرجانِ ونحوِ ذلك.

﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص:٣٨]، ممن زاد شرُّه وكثر ضررُه.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ يقولُ اللهُ: هذا الذي أعطيناكَ عطاؤنا، ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩]، ما عليك لومٌ في مسكِك ولا في إطلاقِ يدِك.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [ص:٤٠]، في الآخرةِ.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُودَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: قُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ، جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعِينَ» [رواه البخاري برقم (٣٤٢٤)، ومسلم برقم (١٦٥٤)].

قال النوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ **في هذا الحديث**: "بأن ما خُصَّ به الأنبياءُ صلواتُ اللهِ تعالى وسلامُه عليهم من القوةِ على إطاقةِ هذا في ليلةٍ واحدةٍ، وكان نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يطوفُ على إحدى عشرةَ امرأةٍ له في الساعةِ الواحدةِ، كما ثبت في الصحيح، على كُلٍّ من زيادةِ القوةِ، واللهُ أعلمُ. قولُه: فتحملُ كلُّ واحدةٍ منهن غلامًا فارسًا يقاتلُ في سبيلِ اللهِ، هذا قاله على سبيلِ التمنيّ الخيرِ، وقصد به الآخرةَ والجهادَ في سبيلِ اللهِ، لا لغرضِ الدنيا. قولُه: فلم تحملْ منهن إلا واحدةٌ وولدتْ نصفَ إنسانٍ، وفي

روايةٍ: جاءتْه بشقِّ غلامٍ، قيل: هو الجسدُ الذي ذكرَه اللهُ تعالى أنه أُلقيَ على كرسيِّه" انتهى.

وأخرجَ مسلمٌ في مقدمةِ الصحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "إنَّ في البحرِ شياطينَ مسجونةً أوثقَها سليمانُ، يوشكُ أن تخرجَ فتقرأَ على الناسِ قرآنًا" أي: كلامًا ليس بكلامِ اللهِ.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا امْرَأَتَانِ مَعهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَأَخَذَ ابْنَ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتِ الْكُبْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الصُّغْرَى: إِنَّمَا هُوَ ذَهَبَ بِابْنِكِ. فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ، فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى. فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ نِصْفَيْنِ، فَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا نِصْفٌ. فَقَالَتِ الصُّغْرَى: يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لَهَا» [رواه البخاري برقم (٣٤٢٧)، ومسلم برقم (١٧٢٠)].

ولعلَّ كِلا الحكمينِ كان صوابًا في شريعتِهم، ولكن ما قاله سليمانُ أرجحُ. ولهذا أثنى اللهُ عليه بما ألهمه إياه، ومدح بعد ذلك أباه فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ٨٠﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠].

ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨١]، أي: الشامَ.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء:٨٢]، وقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ﴾ [سبأ:١٢]، أي: في غَدْوَةٍ تمشي مسافةَ شهرٍ، وفي الرَّوْحَةِ ترجعُ مسافةَ شهرٍ،

أو ربَّما تمضي مسافةَ شهرٍ، فيمكنُ أن يمضيَ في اليومِ الواحدِ مسافةَ شهرينِ وهو على الريحِ. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ:١٢]، النحاسُ صار مذابًا يستطيعُ أن يُشَكِّلَه كيف أراد، ما يحتاجُ إلى كيرٍ ولا إلى شيءٍ من ذلك. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سبأ:١٢]. والجنُّ معروفٌ بقوتِهم وبشدةِ عملِهم، يعملون له نِعَمًا. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ:١٣]. المحاريبُ: دواوينُ وبيوتٌ كبيرةٌ وقصورٌ. وتماثيلُ: ليس معناها الصورَ، أو كانت مباحةً في عهدِهم ثم حُرِّمت في عهدِنا، التمثالُ أعمُّ من الصورةِ. وجِفانٌ: قدورٌ كبيرةٌ كالجوابِ، والجوبةُ هي المكانُ المنخفضُ بين الجبالِ، يعني جِفانًا كبيرةً. وقدورٌ راسياتٌ: كبارٌ لكثرةِ جنودِه وكثرةِ أتباعِه وكثرةِ رجالِه. ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِفْرِيتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ، فَأَمْكَنَنِي اللهُ مِنْهُ فَأَخَذْتُهُ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ دَعْوَةَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ [ص:٣٥]. فَرَدَّهُ اللهُ خَاسِئًا» [رواه مسلم برقم (٥٤١)].

وعن أبي الدرداءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي، فَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ ثَلَاثًا. وَبَسَطَ يَدَهُ كَأَنَّهُ يَتَنَاوَلُ شَيْئًا. فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ سَمِعْنَاكَ تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ شَيْئًا لَمْ نَسْمَعْكَ تَقُولُهُ

قَبْلَ ذلِكَ، وَرَأَيْنَاكَ بَسَطْتَ يَدَكَ. قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ لَوْلَا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لَأَصْبَحَ مَوْثُوقًا يَلْعَبُ بِهِ صِبْيَانُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ» [رواه مسلم برقم (٥٤٢)].

وهو الذي بنى بيتَ المقدسِ. عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُودَ لَمَّا بَنَى مَسْجِدَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سَأَلَ اللهَ خِلَالًا ثَلَاثًا: سَأَلَ اللهَ حُكْمًا يُصَادِفُ حُكْمَهُ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ فَأُوتِيَهُ، وَسَأَلَ اللهَ حِينَ فَرَغَ مِنْ بِنَاءِ الْمَسْجِدِ أَنْ لَا يَأْتِيَهُ أَحَدٌ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا لِلصَّلَاةِ فِيهِ، أَنْ يُخْرِجَهُ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» [رواه النسائي برقم (٦٩٣)].

ذكرُ وفاةِ سليمانَ. قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤]، أي: العصا التي يتكئُ عليها. وهذه الآيةُ يُكَذِّبُ بها بعضُهم، يقول: كيف ما عرفوا أنه ميتٌ؟ نحن نؤمن بظاهرِ القرآنِ، ولا يعجزُ اللهُ شيءٌ.

ذكرُ خرابِ بيتِ المقدسِ. قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ

مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۚ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ [الإسراء:٤-٨].

ذكرُ عمارةِ بيتِ المقدسِ بعد خرابِها. قال تعالى في كتابٍ مُبينٍ، وهو أصدقُ القائلينَ: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة:٢٥٩].

تمت قصة نبي الله سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

قصة نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

قال اللهُ تعالى في كتابِه العزيزِ: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم:١-٦].

وكان زكريَّا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ متزوِّجًا لأختِ مريمَ بنتِ عِمرانَ، فيحيى بنُ زكريَّا وعيسى ابنا الخالةِ. وقولُه: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يدعو ويدعو ويدعو ولا يُستجابُ له، ويؤخِّرُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الاستجابةَ لحكمةٍ أرادها ولمصلحةٍ علمها، أو أنَّ هناك من موانعِ استجابةِ الدعاءِ. ومع ذلك، المؤمنُ لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ، فكم من دعوةٍ استجابها اللهُ بعد سنينَ، وكان بها الخيرُ العظيمُ في الدنيا والآخرةِ. والمرادُ بالميراثِ هنا: يرثني ويرثُ من آلِ يعقوبَ ميراثَ النبوةِ، وإلَّا فإنَّ الأنبياءَ لا يُورَّثونَ، «ما تركوا صدقةً». وقد قال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حثًّا على العلمِ بأنه ميراثُ الأنبياءِ. وفيها أنَّ الإنسانَ إذا دعا له بولدٍ يدعو بولدٍ صالحٍ، بعضُهم ربَّما يسألُ اللهَ الولدَ ولا يُقيِّدُ، فيرزُقُه اللهُ الولدَ يكونُ طالحًا سيِّئًا، لكن يدعو بولدٍ صالحٍ.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم:٧]، أي: بهذا الاسمِ. قال بعضُهم: مثيلًا. والصحيحُ الأوَّلُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨]، مثلي لا ينجبُ

ولا يكونُ له الولدُ. ولكنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ لا يعجِزُه شيءٌ. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم:٩]. قال: ربِّ اجعلْ لي آيةً. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، مع أنه لا علةَ فيه ولا مرضَ، ومع ذلك عجَزَ عن الكلامِ، إنما يشيرُ إليهم إشارةً.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١]، أي: من أماكنِ العبادةِ. استدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على محرابِ المسجدِ، وليس كذلك. وإنما المحرابُ هو مقدمُ المجلسِ ومكانُ العبادةِ. أما المحرابُ الذي يكونُ في مقدمةِ المسجدِ كان يُسمَّى عند السلفِ "الطاقَ"، وكانوا يكرهون الصلاةَ فيه، وربَّما سَمَّوه بالمذبحِ أو المذابحِ. ومع ذلك الصلاةُ فيه لا تبطلُ، لكن اتخاذَه مع القدرةِ على التنحِّي عنه مُحدَثٌ. وسبحان اللهِ، الناسُ يتعلَّقون بما لا دليلَ عليه ويحاولون أن يُضعِّفوا الإنسانَ بأيِّ شُبهةٍ. أذكرُ لما بنينا المسجدَ في البلادِ، حاولوا بقدرِ الإمكانِ –مديرُ الأوقافِ ومَن إليه– أن نبنيَ محرابًا، فقلنا: ما سنبني محرابًا، وذهبوا ورجعوا ونحن قد عزمنا على أمرِنا بحمدِ اللهِ. فقالوا: خلاص، إذا ما يريدُ يبني محرابًا، يبني غرفةً قُدَّامَ المسجدِ مثلَ المحرابِ. قلنا: ولا سنبني غرفةً قُدَّامَ المسجدِ. قالوا: إذا، بما أنه ما يريدُ يبني محرابًا ولا يبني غرفةً، يعملُ نافذةً في المكانِ. قلنا: ولا سنعملُ نافذةً. ومضينا على ذلك، ويسَّرَ اللهُ البناءَ. والآن يدخلُ بعضُهم ممن هو لا يفقهُ الدعوةَ أو ممن هو مُبغِضٌ للدعوةِ –لأن الدعوةَ بين رجلينِ من المخالفينَ لها: مبغضٌ لها، وآخرُ لا يفقهُ أحكامَها، وكلاهما عبءٌ على الدعوةِ– فيدخلُ في المسجدِ ويقولُ: أين أُصلِّي؟ يتجهُ إلى الخلفِ وعليه توجيهٌ إلى كذا، وهم يعرفون القبلةَ، إنما يريدون أن يضحكوا مع

بعضِهم. فالشاهدُ أنَّ الشيطانَ حريصٌ على إزالةِ السُّننِ وعلى إقامةِ البدعِ. الحمدُ للهِ، كثيرٌ من أهلِ السُّنَّةِ الآن يبنون المساجدَ بدونِ هذه المحاريبِ، وبعضُهم وإن بناه، يعني يحاولُ أن يُصلِّيَ في غيره، لكن الأولى أن تُبنى بغيره.

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم:١٢-١٥].

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ﴾ يعني: رزقًا في غيرِ موسمِه، في غيرِ وقتِه. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ﴾؟ من عندكِ هذا الطعامُ والشرابُ في غيرِ موطِنِه؟ ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لكنَّ الحقَّ يا إخوةُ أنَّ مثلَ هذا يحتاجُ إلى ثقةٍ عظيمةٍ في اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصدقِ توكُّلٍ واعتمادٍ ودعاءٍ وتضرُّعٍ. هنالك دعا زكريَّا ربَّه، يعني استفادَ موعظةً من هذا، لمَّا رأى المرأةَ تُرزَقُ برزقٍ لا وجودَ له في المحلِّ، علمَ أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فقال: يا ربِّ ارزقني ولدًا، فأنت على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨]، التقييدُ بالطيبةِ.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩]. قيل: الحصورُ الذي لا رغبةَ له في النساءِ. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ﴾ [آل عمران:٤٠]، أي: لا تلدُ.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٤٠]. وفي حقِّ عيسى قال: ﴿يَخۡلُقُ﴾.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١].

قال تعالى في سورةِ الأنبياءِ: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام:٨٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**كَانَ زَكَرِيَّا** عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ **نَجَّارًا**» [رواه ابن ماجه برقم (٢١٥٢)، وأحمد برقم (٨٨٥٤)].

تمت قصة نبي الله زكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

سمَّاه اللهُ بهذا الاسمِ كما قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ اللهُ لا يعجِزُه شيءٌ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [مريم:١٠]، أي: علامةً.

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠]، مع عافيةِ لسانِه، إلَّا أنه لا يتكلَّمُ. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:١١].

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣﴾ [مريم:١٢-١٣]، أي: أنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ تحنَّنَ عليه.

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم:١٤-١٥]. ومع ذلك يُذكَرونَ أنه قُتِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما أخبرَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ عن أنبياءِ بني إسرائيلَ بقولِه: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]. وتقدَّمَ في ترجمةِ أبيه شيءٌ من ذلك، من أنه كان حَصُورًا، أي: قيل عن النساءِ، وقيل غيرُ ذلك. سَيِّدٌ كاملٌ في سُؤدُدِه.

عن الحارثِ الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا

وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَعْمَلُوا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِلَّا سَأَمْرُهُمْ أَنَا. فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ» [رواه الترمذي برقم (٢٨٦٣)].

فيه: وجوبُ تبليغِ الدينِ وعدمُ كتمانِ الحقِّ. فجمعَ الناسَ في بيتِ المقدسِ في المسجدِ، وقَعَدوا على الشُّرُفِ. قال: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ: أَوَّلُهُنَّ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، التوحيدُ قبلَ كلِّ شيءٍ، التوحيدُ جميعُ الأنبياءِ وجميعُ المرسلينَ يأمرونَ به قبلَ كلِّ شيءٍ.

«وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟» وهذا من الأمثالِ، فقد قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

انظرْ إلى هذا المثلِ العظيمِ للتوحيدِ والشركِ. مثلُ ذلك كمثلِ رجلٍ اشترى عبدًا من خالصِ مالِه، فقال: هذه أرضي فاعملْ وأدِّ إليَّ. فالموحِّدُ يلتزمُ الأمرَ ويعملُ ويؤدِّي إلى سيدِه، والمشركُ يعملُ ويؤدِّي إلى غيرِ سيدِه. وهذا بإجماعِ العقلاءِ أمرٌ مذمومٌ. فللهِ المثلُ الأعلى، كيف خلقَكَ اللهُ ورزقَكَ وأعطاكَ، ثم تذهبُ بالعبادةِ إلى غيرِه من المقبورينَ أو من الحجارةِ والأصنامِ والأوثانِ العاجزةِ عن نفعِ نفسِها فضلًا عن نفعِ غيرِها؟ لو سلَبَها الذبابُ شيئًا مما هو لها لا تمنعُه، وإن بالَ عليها الكلبُ لا تدفعُه.

وقد ذُكِرَ في ترجمةِ بعضِهم أن سببَ إسلامِه أنه رأى كلبًا يبولُ على إلهِه فتعجَّبَ، يعني: كيف ربٌّ ما يستطيعُ أن يدفعَ الكلبَ عن البولِ عليه؟ فالربُّ هو

الذي لا يعجِزُه شيءٌ ولا يُكرَثُه شيءٌ، ولا يستطيعُ له أحدٌ ضرًّا أو نفعًا، وإنما العبادُ ينفعونَ أنفسَهم بطاعةِ ربِّهم.

«يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا». وكما أنك لا ترضى أن يكونَ عبدُك عاقًّا وآبقًا عليك، فكذلك لا تكنْ آبقًا عن طاعةِ ربِّك والتزامِ شرعِه.

«وَإِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ»، سواءٌ كان الالتفاتُ القلبيَّ أو الالتفاتَ البدنيَّ. ولا يلزمُ من هذا أن يكونَ اللهُ متَّحدًا أو مختلطًا بشيءٍ من مخلوقاتِه، فاللهُ على عرشِه، تعالى اللهُ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ.

«وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

«وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ، فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: أَنَا، أَفْدِيهِ مِنْكُمْ بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، فَفَدَى نَفْسَهُ مِنْهُمْ».

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ». كذلك العبدُ لا يحرِزُ نفسَه من الشيطانِ إلا بذكرِ اللهِ.

قال: وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «وَأَنَا آمُرُكُمْ بِخَمْسٍ أَمَرَنِي اللهُ بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ

الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ». قالوا: يا رسولَ اللهِ، وإن صامَ وصلَّى وزعمَ أنه مسلمٌ؟ قال: «**وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ بِمَا سَمَّاهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ**» [رواه الترمذي برقم (٢٨٦٣)].

وأيضًا النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يذكرُ في حديثِ المعراجِ أنه وجدَ في السماءِ الثانيةِ ابْنَيِ الخالةِ: عيسى ويحيى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ.

تمت قصة نبي الله زكريا بن يحيى عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ

قصة نبي الله عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ

أنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ صدرَ سورةِ آلِ عمرانَ، وهي ثلاثٌ وثمانونَ آيةً، في بيانِ شأنِ عيسى ابنِ مريمَ عَلَيهِ السَّلَامُ، والردِّ على النصارى -عليهم لعائنُ اللهِ- الذين زعموا أنَّ للهِ ولدًا، تعالى اللهُ عمَّا يقولونَ عُلُوًّا كبيرًا.

وكان قد قدمَ وفدُ نجرانَ منهم على رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ، فجعلوا يذكرونَ ما هم عليه من الباطلِ من التثليثِ في الأقانيمِ، ويزعمونَ أنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ؛ وهم الذاتُ المقدَّسةُ، وعيسى، ومريمُ -على اختلافِ فرقِهم-، فأنزلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ صدرَ هذه السورةِ، بيَّنَ فيها أنَّ عيسى عبدٌ من عبادِ اللهِ، خلقه اللهُ وصوَّره في الرحمِ كما صوَّر غيرَه من المخلوقاتِ، وأنه خلقه من غيرِ أبٍ، كما خلق آدمَ من غيرِ أبٍ ولا أمٍ، وقال له: "كُنْ" فكانَ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبيَّنَ أصلَ ميلادِ أمِّه مريمَ، وكيف كان من أمرِها، وكيف حملتْ بولدِها عيسى، وكذلك بسطَ ذلك في سورةِ مريمَ، كما سنتكلَّمُ على ذلك كلِّه بعونِ اللهِ وحسنِ توفيقِه وهدايتِه.

قال تعالى وهو أصدقُ القائلينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤﴾ [آل عمران:٣٣-٣٤].

وآلُ عمرانَ هم جَدُّ عيسى عَلَيهِ السَّلَامُ، ذرِّيَّةٌ بعضُها من بعضٍ، واللهُ سميعٌ عليمٌ، كلُّهم أبوهم إبراهيمُ، وإبراهيمُ أبوه نوحٌ، ونوحٌ أبوه آدمُ؛ فيرجعونَ إلى بعضٍ.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران:٣٥]، أي: جعلتْ ما في بطنِها محرَّرًا للعبادةِ في بيتِ المقدسِ،

ولكن جاءتْ أنثى. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦]. كأنَّ النذرَ في عهدِهم بمثلِ هذا كان سائغًا وجائزًا، أما الآنَ فلا يجوزُ التبتُّلُ وكذلك الانقطاعُ في الصوامعِ والبِيَعِ؛ قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد:٢٧].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]، يعني: قَبِلَ اللهُ النذرَ، وكان من شأنِها أنها في حياةٍ طيبةٍ، وكفَّلَها زكريَّا زوجُ خالتِها. ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]. تحقيقُ هذا المعنى يحتاجُ إلى صدقِ توكُّلٍ واعتمادٍ على اللهِ، فكثيرٌ منا يقولُ هذه الكلمةَ مرورًا وباللسانِ، والواقعُ الذي لا يكونُ غيرُه أنَّ اللهَ يرزقُ من يشاءُ بغيرِ حسابٍ، فيوسعُ لمن شاء سعةً لا حسابَ فيها، وربَّما جاءه بالرزقِ من حيث لا يحتسبُ، تنقطعُ عنه الأسبابُ فيأتي فرجُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

واعتقادُ هذه الكلمةِ مؤدَّاه إلى أنَّ الإنسانَ لا يبقى متحسِّرًا متندِّمًا مقهورًا ضَيِّقًا على تأخُّرِ رزقِه؛ فالأمرُ إلى اللهِ، إن شاءَ بسطَ وإن شاءَ منعَ.

عن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «كُلُّ إِنْسَانٍ تَلِدُهُ أُمُّهُ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ فِي حِضْنَيْهِ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ وَابْنِهَا، أَلَمْ تَرَ إِلَى الصَّبِيِّ حِينَ يَسْقُطُ كَيْفَ يَصْرُخُ؟» قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ. قال: «ذَلِكَ حِينَ يَلْكُزُهُ الشَّيْطَانُ بِحِضْنَيْهِ»

[رواه البخاري برقم (٤٥٤٨)، ومسلم برقم (٢٣٦٦)].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران:٤٢-٤٣]، والقنوتُ: طولُ الطاعةِ. ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران:٤٤]، يعني: خبرَ زكريَّا وخبرَ مريمَ، وما كنتَ لديهم -يا محمدُ- إذ يُلقونَ أقلامَهم أَيُّهُم يكفلُ مريمَ، يستهمونَ، قال: الأقلامُ يستهمونَ أَيُّهُم يكونُ من حظِّه، والقرعةُ تطيرُ إليه في كفالةِ مريمَ، الكلُّ يسابقُ إلى الخيرِ، وما كنتَ لديهم إذ يختصمونَ.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥]. وعيسى كان بالكلمةِ، وليس هو الكلمةَ، السببُ الذي جعل النصارى تعبدُ عيسى أنهم زعموا أنه الكلمةُ، والكلمةُ صفةُ اللهِ، وإنما عيسى كان بكلمةِ اللهِ "كُنْ" فكان. ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٤٦]، وكلمهم في حالِ صغرِه: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٠-٣٢]، وسيأتي أنه يُكلِّمُهم حين ينزلُ في آخرِ الزمانِ. ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧]، الأمرُ إلى اللهِ. ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران:٤٨-٤٩]، وهذا دليلٌ على أنه لا يُشترَطُ في النبوةِ والرسالةِ بلوغُ الأربعينَ. ﴿أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ

ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران:٤٩-٥٠]. هو جدَّدَ لهم التوراةَ، وزادهم اللهُ على يدَيه الإنجيلَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [آل عمران:٥١].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ - يَعْنِي عِيسَى - وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ: رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ» [رواه أبو داود برقم (٤٣٢٤)، وأحمد برقم (٩٣٤٩)].

والنصارى الآنَ يرسمونَه أو يُصوِّرونَه وهو آخذٌ بالصليبِ، وهو من شأنِه أن يكسرَ الصليبَ، وهذا لسخافةِ عقولِهم؛ وهم يعتقدون أنَّ ربَّهم صُلِبَ على الصليبِ، كان ينبغي أن هذا الصليبَ يُسحَقُ ويُتلَفُ ولا يكونُ لهم رمزًا، لكن لسخافةِ عقولِهم عبدوا الصليبَ. بل إنَّ صلاحَ الدينِ لمَّا أخذَ عليهم الصليبَ الأصليَّ الذي يعتقدونَه، كم أطلقوا من أسارى المسلمينَ وكم دفعوا من الأموالِ وكم بقوا يطالبونَ فيه حتى حصلوا عليه! لاعتقادِهم أنه الصليبُ الذي صُلِبَ عليه عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؛ فلا أسخفَ من النصارى في عقولِهم؛ يعتقدون عيسى ابنًا، ويعتقدونَه ربًّا، ويعتقدونَه إلهًا، ويعتقدونَه ميتًا مصلوبًا! تناقضٌ عجيبٌ، كيف إلهٌ يموتُ؟ واللهُ عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨]. بل من عجيبِ شأنِهم يعتقدون أنَّ اليهودَ عملوا حولَ رأسِه إكليلًا من الشوكِ، جعلوا

يدخلونَ الشوكَ فيه ويبصقونَ في وجهه، صلبوه ودفنوه، إنما يعتقدون أنه خرج بعد ثلاثةِ أيامٍ؛ يعني كلُّها اعتقاداتٌ باطلةٌ. قال اللهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء:١٥٧-١٥٨]، لم يقعْ له قتلٌ، بل هو مرفوعٌ عند اللهِ. ويقتلُ الخنزيرَ، والنصارى يعجبُهم لحمُ الخنزيرِ. من أسوأِ الناسِ النصارى في غيرتِهم ومروءتِهم، انظرْ كيف مكَّنوا لليهودِ في هذا الزمانِ! هل علمتَ أحدًا يُمكِّنُ لعدوِّه غيرَ النصارى؟ النصارى أعداؤهم اليهودُ على مرِّ العصورِ وتقلُّباتِ الدهورِ، ومع ذلك مكَّنوا لهم في فلسطينَ ومكَّنوا لهم في العالمِ بوعدِ بلفورَ وغيرِ ذلك من الوعودِ، فصار النصارى في الأزمنةِ المتأخرةِ عبيدَ اليهودِ؛ الأممُ المتَّحدةُ وما فيها، واللوبي الذي يتحكَّمُ فيها هم اليهودُ، مع أنَّ أكثرَ الناسِ الذين يموِّلونَها ويقومونَ على شأنِها هم النصارى، كثيرٌ من الأمورِ التي تجري في العالمِ تمويلُها من النصارى خدمةً لليهودِ. صحيحٌ أنَّا في آخرِ الزمانِ، أيامٌ يُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائنُ، ويُخوَّنُ فيها الأمينُ، ويتكلَّمُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ. قاتلهم اللهُ أنَّى يُؤفَكُونَ، واجتماعُهم هو من أجلِ الإسلامِ، اجتماعُهم للمكرِ بالإسلامِ، لكن سيُبقي اللهُ لهم ما يسوؤُهم أبدًا، لا يمكنُ أن تقرَّ أعينُهم بهلاكِ أهلِ الإسلامِ، بل إنَّ أهلَ الإسلامِ ستقرُّ أعينُهم بهلاكِ اليهودِ والنصارى، طالَ الزمانُ أو قصُرَ، ضعُفَ المسلمونَ أو قوُوا؛ العاقبةُ للتقوى.

من الذي أوصلَ أوباما إلى البيتِ الأبيضِ إلا الماسونيَّةُ العالميةُ؟ ومن أوصلَ بايدنَ الآنَ إلى البيتِ الأبيضِ إلا الماسونيَّةُ العالميةُ؟ فأكثرُ رؤساءِ أمريكا الذين يصعدونَ في سلمِ الحكمِ ترفعُهم الماسونيَّةُ اليهوديَّةُ، ومن عارضَ الماسونيَّةَ اليهوديَّةَ إما يقتلونَه وإما يعزلونَه، وهكذا في أوروبا تتحكَّمُ فيهم الدولةُ العميقةُ

وهي الماسونيَّةُ؛ يعني هذه الأمورُ التي تراها من الانتخاباتِ وكذلك الوطنيَّاتِ ما هي إلا تمثيلياتٌ، يتحكَّمونَ في النصارى بسبب ضعفِ النصارى، وبسبب خِسَّةِ النصارى، ونذالةِ النصارى، وبسبب تعاطي النصارى لحمَ الخنزيرِ ساءتْ فعاليَّتُهم، بسبب تعاطيهم لهذا اللحمِ الخبيثِ. حتى أنَّ اليهودَ يملكون البنكَ الدوليَّ، وهكذا تجارةُ الألماسِ في بروكسلَ تبعُ اليهودِ، وهكذا دولةُ سنغافورةَ قوَّمَها اليهودُ، حتى أنَّ الجوازَ السنغافوريَّ يُعتبرُ أولَ جوازٍ في العالمِ بحيثُ إنه يسيرُ حيث أرادَ، لأن اليهودَ ذهبوا بأموالِهم إلى سنغافورةَ. بل كثيرٌ من المدنِ التي ربما لا نريدُ أن نُسَمِّيَها والتي ينتعشُ فيها الاقتصادُ ويقوى فيها الأمرُ، يعودُ إلى الجماعةِ يستثمرونَ فيها الأموالَ. فقُبْحُ النصارى، أذلَّهم اللهُ بسبب كفرِهم وشركِهم، وسيطرَ عليهم ثُلَّةٌ يسيرةٌ وعددٌ يسيرٌ من اليهودِ.

قال: «وَيُهْلِكُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يَتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ» [رواه أبو داود برقم (٤٣٢٤)].

ولو جئتم للسببِ الذي يُنعِشُ فيه النصارى اليهودَ، لتعجَّبتم أنه السببُ الذي تُنعِشُ فيه الرافضةُ: الزنا والمتعةُ وغيرُ ذلك. والسببُ الذي يقعُ فيه اليهودُ للفسادِ العريضِ، الرافضةُ يفعلون ذلك من أجلِ أن يظهرَ المهديُّ؛ لأن مهديَّهم لا يظهرُ إلا في شدَّةِ الفسادِ. واليهودُ يفعلون هذه الأفعالَ من أجلِ أن يظهرَ الدجَّالُ؛ لأن دجَّالَهم (مهديَّهم) لا يظهرُ إلا في شدَّةِ الفسادِ. والنصارى يخدمون اليهودَ حتى ينزلَ عيسى بنُ مريمَ؛ لأن عيسى لا يكونُ إلا بعدَ الدجالِ. لكنَّ أهلَ السنةِ يرون أنه يجبُ عليهم أن يطيعوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ في كلِّ وقتٍ وحينٍ، ولذلك لا ينتظرون لإقامةِ الدينِ المهديَّ ولا غيرَ المهديِّ، ولا ينتظرون لإقامةِ الدينِ نزولَ عيسى بنِ

مريمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ يجبُ عليهم أن يُقيموا الدينَ الآنَ. لو قال لي واحدٌ: "أنا لن أُصلِّيَ حتى ينزلَ عيسى" يكونُ في حكمِ الكافرينَ، أو قال: "أنا لن أكونَ كذا وكذا حتى ينزلَ عيسى أو حتى يأتيَ المهديُّ"، هذا ليس بدينٍ، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

لكنَّ هؤلاء ضلَّتْ عقائدُهم، فأصبحوا لا يستقيمُ شأنُهم؛ فالرافضةُ ينتظرون مهديَّ صاحبِ السردابِ، والنصارى ينتظرون المهديَّ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، واليهودُ ينتظرون مهديَّهم الدجالَ -عليه لعنةُ اللهِ-. حتى أنَّ الرافضةَ إلى عهدٍ قريبٍ لا يشهدون الجمعةَ ولا الجماعةَ ولا الحجَّ ولا العمرةَ، ولا عندهم جهادٌ ولا عندهم عيدٌ ولا شيءٌ، ينتظرون المهديَّ. إنما جاءَهم الخمينيُّ ببدعةِ "ولايةِ الفقيهِ"، ولايةُ الفقيهِ هذه بدعةٌ خمينيَّةٌ، قال لهم: الفقيهُ يكونُ في رتبةِ المهديِّ كالنائبِ للمهديِّ، يأمُركم بما أمركم وينهاكم عما نهاكم، فأصبحتْ دولتُهم قائمةً على هذا الأمرِ. وإلا فالرافضةُ على مرِّ العصورِ أهلُ نفاقٍ، لا تقومُ لهم دولةٌ، ولا تُرفَعُ لهم رايةٌ، ولا تتحقَّقُ لهم غايةٌ. ولا يُستبعَدُ أن ولايةَ الفقيهِ جاءتهم من قبلِ اليهودِ؛ لأن الخمينيَّ أصلًا أخذَته المخابراتُ ورُبِّيَ في فرنسا ولُقِّنَ ما يقوله، وهم الذين جاءوا به إلى إيرانَ في طائرةٍ فرنسيَّةٍ في سنةِ ٧٩، وإلا كان مقصيًّا من قبلِ شاهِ إيرانَ. واللهُ المستعانُ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: يُلقَى عيسى حجَّتَه، ولقاه اللهُ في قولِه: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المائدة:١١٦]. قال أبو هريرةَ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فلقاه اللهُ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ﴾ [المائدة:١١٦] [رواه الترمذي برقم (٣٠٦٢)].

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٤٣٠)].

وعن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَسْبُكَ مِنْ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ بِأَرْبَعٍ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ» [رواه أحمد برقم (١٢٣٩٦)]. زيادةُ فاطمةَ وخديجةَ فيه خلافٌ.

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» [رواه الترمذي برقم (٣٨٨٧)، وقال: حسن صحيح].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحدِّثُ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ صَالِحُ نِسَاءِ قُرَيْشٍ؛ أَحْنَاهُ عَلَى وَلَدٍ فِي صِغَرِهِ، وَأَرْعَاهُ لِزَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ». قال أبو هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بَعِيرًا قَطُّ" [رواه مسلم برقم (٢٥٢٦)].

ذكرُ ميلادِ العبدِ الرسولِ عيسى بنِ مريمَ العذراءِ البتولِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم:١٦-١٨]، شرقيَّ المسجدِ أو نحوِ ذلك، فاتَّخذتْ من دونِهم حجابًا لتتفرَّغَ للعبادةِ، فأرسلنا إليها روحَنا جبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتمثَّلَ لها بشرًا سويًّا، قالت: إني أعوذُ بالرحمنِ منك إن كنتَ تقيًّا. قيل: لماذا قيَّدَتْه بالتَّقيِّ؟ قيل: لأنَّ التَّقيَّ هو الذي ينصحُ فيُقبَلُ. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ٢١﴾ [مريم:١٩-٢١]،

فحملتْه بعدَ أن نفخَ في دَرْعِها ووصلَ إلى فرجِها، فانتبذتْ به مكانًا قصيًّا. ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم:٢٣]، بعدَ أن حملتْه، وليس عندنا شيءٌ في مدَّةِ الحملِ إلا أنَّا نؤمنُ أنها حملتْ به كما تحملُ النساءُ، ووضعتْه كما تضعُ النساءُ مع ما يسَّرَه اللهُ عليها، فألجأها المخاضُ إلى جذعِ النخلةِ، قالت: يا ليتني متُّ قبلَ هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا؛ خشيةَ الفضيحةِ. ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ [مريم:٢٤-٢٥]، ناداها: قيل جبريلُ، وقيل ولدُها، وسريًّا: أي نهرًا يسيرًا، وهُزِّي إليكِ بجذعِ النخلةِ من بابِ فعلِ السببِ. وهذا استدلَّ به من استدلَّ على أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان مولِدُه في الصيفِ لا الشتاءِ، فالنصارى يحتفلون بمولِدِه وجعلوه في الشتاءِ، وهذا أمرٌ ليس غريبًا عليهم، فقد غيَّروا شهرَ الصيامِ إلى الشتاءِ مع أنه كان في الصيفِ، فهم محرِّفون لكتابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ. ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم:٢٦-٢٧]، قبلَ أن يُخبِروا بحقيقتِه، يعني كلامُهم قد يكونُ له وجهٌ، مع أنه كان ينبغي لهم أن يسألوها: ما هذا؟ لكن بعدَ أن خاطبهم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مبيِّنًا لهم براءةَ أمِّه، ثم استمرُّوا على اتِّهامِها بيوسفَ النجَّارِ، وهذا بهتانٌ وظلمٌ، كبارٌ طعنوا في امرأةٍ قد برَّأها اللهُ بآيةٍ لا تكونُ إلا في حالاتٍ نادرةٍ، وهي كلامُ الطفلِ المولودِ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٢٨-٣٠]، فأوَّلُ كلمةٍ نطق بها: "إني عبدُ اللهِ"، لم يقل: ابنُ اللهِ، ولم يقل:

أنا اللهُ؛ فقولُه "إني عبدُ اللهِ" ردٌّ على النصارى. ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا
بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ
حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ
مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا
صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ
٣٧﴾ [مريم:٣٠-٣٧].

وعن المغيرةِ بنِ شعبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بعثني رسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى نجرانَ، فقالوا: أرأيتم ما تقرؤون: (يا أختَ هارونَ)، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا؟ فذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ» [رواه مسلم برقم (٢١٣٥)]. يعني: ليست هي أختَ هارونَ أخي موسى، وإنما هارونُ أخوها الذي سُمِّيَ باسمِ ذلك النبيِّ الأول. فلو قال الآن أحدٌ: يا أختَ محمدٍ، هل نقولُ إنها أختُ محمدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أم أنها أختُ محمدٍ الذي هو أخوها من أمِّها وأبيها؟ فكانوا يُسمَّونَ بأسماءِ أنبيائِهم، كما نُسمِّي الآنَ محمدًا وأبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا وموسى وعيسى بأسماءِ الأنبياءِ والصالحينَ.

حقيقةُ عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولمَّا ذكرَ اللهُ تعالى قصَّةَ عيسى على الجليَّةِ، وبيَّنَ أمرَه، ووضَّحَه وشرحَه، قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم:٣٤-٣٥]. كما قال تعالى في آلِ عمرانَ: ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ٥٨ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [آل عمران:٥٨-٦٣].

ولهذا لمَّا قدمَ وفدُ نجرانَ، وكانوا ستينَ راكبًا، يرجعُ أمرُهم إلى أربعةَ عشرَ منهم، ويؤولُ أمرُ الجميعِ إلى ثلاثةٍ هم أشرافُهم وساداتُهم، وهم: العاقبُ، والسَّيِّدُ، وأبو حارثةَ بنِ علقمةَ، فجعلوا يناظرونَ في أمرِ المسيحِ، فأنزلَ اللهُ صدرَ سورةِ آلِ عمرانَ في ذلك، وبيَّنَ أمرَ المسيحِ وابتداءَ خلْقِه وخَلْقِ أمِّه من قبلِه، وأمرَ رسولَه بأن يُباهِلَهم إن لم يستجيبوا له ويتبعوه، فلمَّا رأوا عَيْنَيْها وأُذُنَيْها نكَصوا وامتنعوا عن المباهلةِ، وعدلوا إلى المسالمةِ والمُوادَعةِ، وقال قائلُهم -وهو العاقبُ عبدُ المسيحِ-: يا معشرَ النصارى، لقد علمتم أنَّ محمدًا نبيٌّ مُرسَلٌ، ولقد جاءكم بالفصلِ من خبرِ صاحبِكم، ولقد علمتم أنه ما لاعَنَ قومٌ نبيًّا قطُّ فبقيَ كبيرُهم ولا نبتَ صغيرُهم، وإنها للاستئصالِ منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلفَ دينِكم والإقامةَ على ما أنتم عليه من القولِ في صاحبِكم، فوادِعوا الرجلَ وانصرفوا إلى بلادِكم. فطلبوا ذلك من رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسألوه أن يضربَ عليهم جزيةً، وأن يبعثَ معهم رجلًا أمينًا، فبعث معهم أبا عبيدةَ بنَ الجراحِ.

وأخرجَ البخاريُّ عن عبادةَ بنِ الصامتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ

عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٥)].

وقال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١٠-١١١].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٢-٥٤]. وهذا من جملةِ نِعَمِ اللهِ على عبدِه ورسولِه عيسى ابنِ مريمَ أن جعل له أنصارًا وأعوانًا ينصرونَه ويدعون معه إلى عبادةِ اللهِ وحدَه لا شريكَ له.

كانت معجزةُ كلِّ نبيٍّ في زمانِه بما يناسبُ أهلَ ذلك الزمانِ، فذكروا أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كانت معجزتُه مما يناسبُ أهلَ زمانِه، وكانوا سحرةً أذكياءَ، فبعث بآياتٍ بهرتِ الأبصارَ وخضعتْ لها الرقابُ، ولمَّا كان السحرةُ خبيرين بفنونِ السحرِ وما ينتهي إليه، وعاينوا ما عاينوا من الأمرِ الباهرِ الهائلِ الذي لا يمكنُ صدورُه إلا عمن أيَّده اللهُ وأجرى الخارقَ على يدَيه تصديقًا له، أسلموا سِراعًا ولم يتلعثموا.

وهكذا عيسى بنُ مريمَ بُعِثَ في زمنِ الطبائعيةِ الحكماءِ، فأرسل بمعجزاتٍ لا يستطيعونَها ولا يهتدونَ إليها، وأنَّى لحكيمٍ إبراءُ الأكمهِ الذي هو أسوأُ حالًا من الأعمى، والأبرصِ والمجذومِ ومن به مرضٌ مُزمنٌ، وكيف يتوصَّلُ أحدٌ من الخلقِ إلى أن يُقيمَ الميتَ من قبرِه؟ هذا مما يعلمُ كلُّ أحدٍ معجزةً دالَّةً على صدقِ من قامت به، وعلى قدرةِ من أرسله. وهكذا محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليهم أجمعين، بُعِثَ في زمنِ الفصحاءِ البلغاءِ، فأنزلَ اللهُ عليه القرآنَ العظيمَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يدَيه ولا من خلفِه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ، فلفظُه معجزٌ، تحدَّى به الإنسَ والجنَّ أن يأتوا بمثلِه أو بعشرِ سورٍ من مثلِه أو بسورةٍ، وقطع عليهم بأنهم لا يقدرونَ لا في الحالِ ولا في الاستقبالِ، فإن لم يفعلوا ولن يفعلوا، وما ذاك إلا لأنه كلامُ الخالقِ عَزَّوَجَلَّ، واللهُ تعالى لا يُشبِهُ شيئًا لا في ذاتِه ولا في صفاتِه ولا في أفعالِه.

والمقصودُ أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لمَّا أقام عليهم الحججَ والبراهينَ، استمرَّ أكثرُهم على كفرِهم وضلالِهم وعنادِهم وطغيانِهم، فانتدبَ له من بينهم طائفةٌ صالحةٌ، فكانوا له أنصارًا وأعوانًا، قاموا بمتابعتِه ونصرتِه ومناصحتِه، وذلك حين هَمَّ به بنو إسرائيلَ ووشَوْا به إلى بعضِ ملوكِ ذلك الزمانِ، فعزموا على قتْلِه وصلبِه، فأنقذه اللهُ منهم ورفعَه إليه من بين أظهرِهم، وألقى شبهَه على أحدِ أصحابِه، فأخذوه فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدونَه عيسى، وهم في ذلك غالطونَ وللحقِّ مكابرونَ، وسلَّم لهم كثيرٌ من النصارى ما ادَّعوه، وكلا الفريقينِ في ذلك مخطئونَ. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ

ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧ يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصف:٦-٨]، إلى أن قال بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

فعيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو خاتمُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وقد قام فيهم خطيبًا، فبشَّرهم بخاتمِ الأنبياءِ الآتي بعدَه، ونوَّه باسمِه، وذكر لهم صفتَه ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه، إقامةً للحجةِ عليهم، وإحسانًا من اللهِ إليهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧].

ذكرُ خبرِ المائدةِ:

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ﴾ [المائدة:١١٢].

قيل في معناها: هل تستطيعُ أن تسألَ ربَّك؟ واستُدِلَّ بها على العذرِ بالجهلِ؛ لأنهم شكُّوا في قدرةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وقيل غيرُ ذلك. فدعا عيسى: ﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأۡكُلَ مِنۡهَا وَتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعۡلَمَ أَن قَدۡ صَدَقۡتَنَا

وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٤-١١٥]. وهل نزلت أم لم تنزل؟ هذا خلافٌ بين أهلِ العلمِ، ذهب بعضُهم إلى أنها لم تنزلْ؛ لأنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قيَّدَ نزولَها بهذه الأمورِ التي إن خالفوها لحقهم العذابُ الأليمُ والخزيُ العظيمُ، مع ما هم فيه من المخالفةِ لأمرِ اللهِ ورسولِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: متأخروهم، أما هم فما عندهم أيةٌ نزلت فيهم وأنهم كفروا، وما يتناقله العوامُ من أنهم أكلوها وأبَوْا رفعَها فلم تعُدْ إليهم، كلامٌ لا دليلَ عليه يثبتُ إلى النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واللهُ أعلمُ.

❁ ذكرُ رفعِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى السماءِ في حفظِ الربِّ، وبيانُ كذبِ اليهودِ والنصارى في دعوى الصلبِ.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران:٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء:١٥٥-١٥٦]، اتَّهموها بالزنا.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ [النساء:١٥٧]، أي: أُلقيَ شبهُه على أحدِ تلاميذِه، وقيل: على أحدِ المُبَلِّغِ

به. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾ [النساء:١٥٧]، في شكٍّ من عيسى، بعضُهم يُسمِّيه الابنَ، وبعضُهم يُسمِّيه الأبَ، وبعضُهم يُسمِّيه روحَ القدسِ. ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ [النساء:١٥٧]، الظنَّ السيِّئَ بربِّهم وبأنبيائِه ورسلِه. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ [النساء:١٥٧]، يعني: هذا أمرٌ مُستيقَنٌ منه أنهم ما قتلوه ولا تمكنوا منه. ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ [النساء:١٥٨-١٥٩]، أي: قبل موتِ عيسى، وقيل: إنَّ اليهوديَّ أو النصرانيَّ يؤمنُ قبل موتِ نفسِه، لكن في وقتٍ لا ينفعُ فيه الإيمانُ حين تبلغُ الروحُ الحلقومَ. ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء:١٥٩]. فأخبرَ تعالى أنه رفعه إلى السماءِ بعدما توفَّاه -بالنومِ على الصحيحِ المقطوعِ به- وخلَّصَه ممن كان أراد أذيَّتَه من اليهودِ الذين وَشَوْا به إلى بعضِ الملوكِ الكفرةِ في ذلك الزمانِ.

❁ ذكرُ صفةِ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ووسمِه وفضائلِه:

قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة:٧٥]. قيل: سُمِّيَ المسيحَ لِمَسْحِه الأرضَ، وهو سياحتُه فيها وفرارُه بدينِه من الفتنِ في ذلك الزمانِ، لشدةِ تكذيبِ اليهودِ له وافترائهم عليه وعلى أمِّه عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ. وقيل: لأنه كان ممسوحَ القدمينِ. هو مسيحُ الهدى، والدجالُ مسيحُ الضلالِ.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَۖ﴾ [الحديد:٢٧]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ﴾ [البقرة:٨٧].

وقد تقدَّم ما ثبت في الصحيحين: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَطْعَنُ فِي خَاصِرَتِهِ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا، ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ» [رواه البخاري برقم (٤٥٤٨)، ومسلم برقم (٢٣٦٦)].

وتقدَّم حديث عُبادةَ بنِ الصامتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٥)، ومسلم برقم (٢٨)].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ من حديثِ الشعبيِّ، عن أبي بردةَ بنِ أبي موسى، عن أبيه، قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَدَّبَ الرَّجُلُ أَمَتَهُ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا فَتَزَوَّجَهَا، كَانَ لَهُ أَجْرَانِ؛ وَإِذَا آمَنَ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ثُمَّ آمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ؛ وَالْعَبْدُ إِذَا اتَّقَى رَبَّهُ وَأَطَاعَ مَوَالِيَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٤٤)، ومسلم برقم (١٥٤)]. فواجبٌ على بني إسرائيلَ أن يطيعوه لأنه رسولٌ إليهم.

وعن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي لَقِيتُ مُوسَى، قَالَ: فَنَعَتَهُ فَإِذَا رَجُلٌ -حَسِبْتُهُ قَالَ- مُضْطَرِبُ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. قَالَ: وَلَقِيتُ عِيسَى، فَنَعَتَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: رَبْعَةٌ أَحْمَرُ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنْ دِيمَاسٍ -يَعْنِي الْحَمَّامَ- وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٦)، ومسلم برقم (١٦٥)].

عن ابنِ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَأَيْتُ عِيسَى وَمُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ، فَأَمَّا عِيسَى فَأَحْمَرُ جَعْدٌ عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَى فَآدَمُ جَسِيمٌ سَبِطٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ الزُّطِّ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٨)].

عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ: ذكر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا بين ظَهْرانَي الناسِ المسيحَ الدجالَ فقال: «إِنَّ اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، إِلَّا أَنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ، وَأَرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ فِي الْمَنَامِ، فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ كَأَحْسَنِ مَا يُرَى مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ، تَضْرِبُ لِمَّتُهُ بَيْنَ مَنْكِبَيْهِ، رَجِلُ الشَّعْرِ يَقْطُرُ رَأْسُهُ مَاءً، وَاضِعًا يَدَيْهِ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلَيْنِ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. ثُمَّ رَأَيْتُ رَجُلًا وَرَاءَهُ جَعْدًا قَطَطًا أَعْوَرَ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَشْبَهِ مَنْ رَأَيْتُ بِابْنِ قَطَنٍ، وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى مَنْكِبَيْ رَجُلٍ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ» [رواه البخاري برقم (٣٤٤٠)، ومسلم برقم (٢١٤)].

فبيَّنَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه صفةَ المسيحينِ: مسيحِ الهدى ومسيحِ الضلالةِ؛ ليعرفَ هذا إذا نزل فيؤمنَ به المؤمنون، ويعرفَ الآخرَ فيحذره الموحدون.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلَّا وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي» [رواه البخاري برقم (٣٤٤٢)، ومسلم برقم (٢٣٦٨)].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» ، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٤]. فأوَّلُ الخلائقِ يُكسى إبراهيمُ، ثم يُؤخذُ برجالٍ من أصحابي ذاتَ

اليمينِ وذاتَ الشمالِ، فأقولُ: أُصَيْحابي! فيُقالُ: إنهم لن يزالوا مُرتَدِّينَ على أعقابِهم منذُ فارقتَهم، فأقولُ كما قال العبدُ الصالحُ عيسى ابنُ مريمَ: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة:١١٧-١١٨] [رواه مسلم برقم (٢٨٦٠)]. هذا يحملُ على أُناسٍ مخصوصينَ ارتدُّوا، ليس على جميعِ الصحابةِ كما تقولُ الرافضةُ، فإنَّ الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم على خيرٍ وهدًى وتُقًى، شأنُهم عظيمٌ في بابِ الإيمانِ والثباتِ عليه.

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سمع عمرَ يقولُ على المنبرِ: سمعتُ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» [رواه البخاري برقم (٣٤٤٥)]. قال: وفيه أنهم أَلَّهوه وزعموا أنه ابنُ اللهِ.

وقال البخاريُّ: عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ يُصَلِّي، إِذْ جَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي؟ فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لَا تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٦)]. عُزَّ الزمانِ، وذلك أنه أقبلَ على صلاتِه وترك إجابةَ أمِّه. وهنا مسألةٌ: إذا كان الإنسانُ في صلاةٍ فدعته أمُّه أو أبوه، هل يُجيبُهما؟ نقولُ: إن كانت الصلاةُ فريضةً فيمضي في صلاتِه، وإن كانت الصلاةُ نافلةً فله أن يقطعَ صلاتَه ويُجيبَ النداءَ. وهناك تفصيلٌ آخرُ يذكره بعضُ أهلِ العلمِ: إذا كان من شأنِ الأبوينِ ألا يقعَ في نفوسِهما شيءٌ على الولدِ إذا تأخَّر في الصلاةِ، أو كان الشأنُ أنهما لا يمنعان الاستمرارَ في الصلاةِ، فله أن يُصلِّيَ ولا بأسَ أن يتجوَّزَ

ويُجيبَهما، وإن كان الشأنُ غيرَ ذلك فيقطعُ الصلاةَ، ولا يدخلُ هذا في قولِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [محمد:٣٣]؛ لأن طاعةَ الوالدين مقدَّمةٌ على النافلةِ من الصلاةِ، ويستدلُّ العلماءُ بهذا الحديثِ.

اللهُ عَزَّوَجَلَّ استجابَ دعوتَها على ابنِها، قال بعضُ أهلِ العلمِ: لو دعتْ عليه بالزنا لوقعَ فيه، لكن قالت: "اللهمَّ لا تمِتْه حتى تُرِيَه وجوهَ الموسماتِ" أي وجوهَ الزواني، فسترى ما يكونُ من شأنِه. قال: وكان جُرَيْجٌ في صومعتِه، فعرضتْ له امرأةٌ وكلمته فأبى، فأتتْ راعيًا فأمكنتْه من نفسِها فولدتْ، فقيل لها: ممن؟ قالت: من جُرَيْجٍ! فأتوه وكسروا صومعتَه وأنزلوه وسبُّوه، فتوضَّأ وصلَّى ثم أتى الغلامَ فقال: مَن أبوك يا غلامُ؟ قال: فلانٌ الراعي. قالوا: أَنَبْنِي صومعتَك من ذهبٍ؟ قال: لا، إلا من طينٍ.

وهكذا الناسُ؛ ما أكثرَ من يتلقَّفُ الكلماتِ التي فيها طعنٌ في أهلِ السنةِ والجماعةِ، وتشويهٌ لمذهبِهم وطريقِهم، وتشويهٌ لدورِ حديثِهم. أولًا: هم ليسوا بمعصومينَ، فقد تقعُ من حالِهم المعصيةُ ويتحمَّلُ جريرتَها، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام:١٦٤]، والمثلُ يقولُ: "كلُّ شاةٍ مُعلَّقةٌ برجلِها".

الأمرُ الثاني: يُبالِغُ الناسُ فيما وقعَ وفيما لم يقعْ، فإن وقعَ شيءٌ يقعُ أضعافُه وأضعافُه عند غيرِهم، لا يرَوْنَ إلا ما وقعَ منهم، مع أنَّا لا نُقِرُّ المعاصيَ ولا نَرْضاها ممن وقعتْ، لكن نتعاملُ مع المعصيةِ بقدرِها، ومع المخالفةِ بقدرِها. النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ رأى رجلًا معه ولدٌ، فقال: «ابْنُكَ هَذَا؟» قال: أشهدُ عليه. قال: «أَمَا إِنَّكَ لَا تَجْنِي عَلَيْهِ وَلَا يَجْنِي عَلَيْكَ».

وقد تكونُ الدعايةُ بالباطلِ، وأصحابُ الدعاياتِ الباطلةِ حَسيبُهم اللهُ، حَسيبُهم اللهُ. وطالبُ العلمِ يعلمُ معنى "حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ"، بعضُهم يظنُّ أنها كلمةٌ عابرةٌ، وهي من أعظمِ الدعاءِ، ومن أشدِّه، ومن أرجى أن يُستجابَ، فإذا كان اللهُ كافيكَ وكان اللهُ هو الناصرَ لك، فابشِرْ بالخيرِ. نعم.

فَلْيَحْذَرِ الذين يتكلمونَ في أهلِ السنةِ والجماعةِ، ويتكلمونَ في دورِ حديثِهم، ويُزَهِّدونَ في الخيرِ، ليحذروا من بطشِ اللهِ وعقابِه وأليمِ عذابِه. يُذكرُ عن ابنِ عبَّاسٍ أنه قال: "لو عيَّرْتُ كلبًا لخشيتُ أن يمسخَني اللهُ عَزَّوَجَلَّ كلبًا" -أو كما قيل-، فكيف بالذين يتكلمونَ في طلابِ العلمِ وفي دارِ الحديثِ الذي فيه أهلُ الصيانةِ والديانةِ والقيامِ والصيامِ وقراءةِ القرآنِ، الذين يُرجى أن يكونَ منهم من يدعو إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ على بصيرةٍ ونورٍ؟ بل بعضُهم يعلمُ واللهِ أن أهلَ السنةِ وطلابَ العلمِ على خيرٍ عظيمٍ، لكن يحمله الحقدُ والبغضُ وسوءُ السريرةِ على أن يتكلمَ بما لا يعتقدُ.

المهمُّ: نحن نقولُ: حَسيبُهم اللهُ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤]، أي: كافيكَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وكافي مَن اتبعك من المؤمنينَ في المهماتِ والمُدْلَهِمَّاتِ. وأيضًا مع ذلك ينبغي لطالبِ العلمِ أن يكونَ بصيرًا، أن يكونَ بعيدًا عن الريبِ وعن مسبباتِها؛ لأن خطأَه يَجُرُّ إلى طعنٍ في خيرٍ عظيمٍ، ويَجُرُّ إلى إساءةِ ظنٍّ في أناسٍ كثيرٍ، ويَجُرُّ على التجرُّؤِ على ما لم يتجرأْ عليه الناسُ من قبلُ، فيُلْقَى أحدُهم سَبَهْلَلًا. نسألُ اللهَ أن يُصلحَ شأنَنا وشأنَ جميعِ المسلمينَ، وأن يكفينا الشرورَ والآثامَ، إنه وليُّ ذلكَ.

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: وكانت امرأةٌ تُرضِعُ ابنًا لها في بني إسرائيلَ، فمرَّ بها رجلٌ راكبٌ ذو شارةٍ -يعني ذو هيئةٍ حسنةٍ-، فقالت: اللهمَّ اجعلِ ابني مثلَه! فترك ثديَها وأقبلَ على الراكبِ، فقال: اللهمَّ لا تجعلني مثلَه. ثم أقبلَ على ثديِها يَمُصُّه -قال أبو هريرةَ: كأني أنظرُ إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمُصُّ أُصبُعَه-، ثم مرَّ بأَمَةٍ تُضرَبُ، فقالت: اللهمَّ لا تجعلِ ابني مثلَ هذه! فتركَ ثديَها، فقال: اللهمَّ اجعلني مثلَها. فقالت: لِمَ ذاك؟ فقال: «**الرَّاكِبُ جَبَّارٌ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَهَذِهِ الْأَمَةُ يَقُولُونَ لَهَا: سَرَقْتِ وَزَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلْ**» [رواه البخاري برقم (٣٤٣٦)، ومسلم برقم (٢٣٦٨)].

انظرْ إلى هذا الحالِ: "**سَرَقْتِ وَزَنَيْتِ، وَلَمْ تَفْعَلِي شَيْئًا**".

قولُ: "لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ"، دعاءٌ وخبرٌ، ولذلك كان الشأنُ فيها أنها كنزٌ من كنوزِ الجنةِ، فلو أكثرَ المرءُ منها وعوَّدَ لسانَه عليها، كان بها صَرْفٌ لكثيرٍ من الشرورِ، وكان بها دفعٌ لكثيرٍ من الزُّورِ والفجورِ، وكان بها جلبٌ للحُبورِ والسرورِ، فهي كلمةٌ عظيمةٌ دالةٌ على عظيمِ الرضا والاعتمادِ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ لا حولَ لي ولا قوةَ لي في جلبِ نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ إلا باللهِ. فلو أن الناسَ التزموا مثلَ هذه الكلمةِ العظيمةِ لزالتْ كثيرٌ من همومِهم وكثيرٌ من شرورِهم، وحصلَ لهم الخيرُ العظيمُ، مع أنها ذِكْرٌ، كنزٌ من كنوزِ الجنةِ، كلما ذكرتَ اللهَ بها كان لكَ كنزٌ في الجنةِ.



الفهرس

المقدمة ٧

❁ التفاضل بين الأنبياء والرسل:.................................... ١٤

فصل ١٧

❁ تنبيه: ١٨

قصة نبي الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٠

❁ احتجاج آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ٣٣

❁ أولاد آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٣٤

❁ وفاة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٣٧

قصة نبي الله نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٣٨

❁ الأصنام التي عبدها قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:............................... ٤٩

❁ وصية نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:.. ٤٩

قصة نبي الله إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٥١

قصة نبي الله هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٥٣

قصة نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٦٤

قصةُ نبي الله إبراهيمَ بنِ آزرَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٧٢

❁ مناظرة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه عباد الكواكب: ٧٦

❁ موقفه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع قومه وحواره معهم في بيان عجز الأصنام وضلال عابديهم ٧٨

❁ ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع النمرود مدعي الربوبية:................ ٨٤

❁ هجرة الخليل إلى بلاد الشام:.................................... ٨٥

❁ قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ملك مصر: ٨٦

❁ ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى جبال فاران وهي أرض مكة، وبناؤه البيت العتيق: ٨٧

❁ قصة الذبيح:.. ٩٤

❁ براءة إبراهيم من المشركين: ٩٦

قصة نبي الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ **٩٩**

قصة نبي الله إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ **١٠٩**

قصة نبي الله إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ................................ **١١٤**

❁ ذكر بناء البيت العتيق: ١١٧

❁ ذكر صفة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ :.................................... ١٢٢

قصة نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ **١٢٤**

قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.. **١٢٨**

قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ **١٥٣**

قصة نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٥٨

قصة نبي الله ذو الكفل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٦١

قصة أصحاب الرس ١٦٢

❁ قصة قوم ياسين (أصحاب القرية) ١٦٢

قصة نبي الله يونس بن متى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٦٤

قصة نبي الله موسى بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ١٧٠

هارونَ بنِ عِمرانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٢٥

قصبةُ نبيِّ اللهِ يُوشَعَ بنِ نُونٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٢٨

قصة نبي الله الخَضِرُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٣٠

قصة نبي الله إلياسُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٣١

فصل ٢٣٢

❁ حِزْقِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٣٢

❁ الْيَسَعُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٣٣

❁ شَموِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٣٣

❁ عُزَيْرٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ٢٣٥

قصة نبي الله داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٣٦

قصة نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ٢٤٠

قصة نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **٢٥٠**

قصة نبي الله يحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ **٢٥٤**

قصة نبي الله عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **٢٥٨**

❁ ذكرُ خبرِ المائدةِ: ٢٧١

❁ ذكرُ رفعِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى السماءِ في حفظِ الربِّ، وبيانُ كذبِ اليهودِ والنصارى في دعوى الصلبِ.. ٢٧٢

❁ ذكرُ صفةِ عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ووسمِه وفضائلِه: ٢٧٣

الفهرس **٢٨١**